هل تشتعل الغابة مرة اخرى ؟

I

مرة اخرى أقتلع من جذوري وأسافر في رياح العالم . تجربة جميلة ومرعبة في الوقت ذاته . كان المنظر الاخير كومة من الرماد . الدخان يتصاعد منها ببطء ويكاد يتلاشى بسرعة مذهلة . وأتساءل حول مصير الجمر تحت الرماد . هل ينمو الجمر ؟ هل تشتعل الغابة مرة اخرى ؟

تركت وفي قلبي غصة . ما زلت أشعر ان شيئاً يجب ان يقال حول نظرة العربي الى نفسه في فترة الرماد هذه . ما هي هذه الصورة القاتمة التي رسمها لنفسه ؟ ماذا يتداعى الى مخيلاتنا عندما نقف أمام أنفسنا وجهاً لوجه في مرآة الاحداث العالمية ؟ ما هو رأينا بقدرتنا على مواجهة التحديات الكبرى ؟ ماذا يعني لنا اننا عرب في هذا العصر ؟ الى أي حد نثق بانفسنا وقدرتنا على تجاوز الاوضاع الراهنة ؟

شيء مرعب . اخطر ما نواجهه نظرتنا الى أنفسنا . الاتجاهات التي تتبعها الانظمة العربية تزيد من كمية الرعب اذ تؤكد أننا لا نملك القدرة . تقنعنا باختيار طريق السلامة دون ان تهتم بصحتنا النفسية . تربي فينا عقدة النقص . تسلبنا ثقتنا بانفسنا وتحرمنا من نعمة البطولة، من النمو في الثورة وصنع التاريخ وخلق المستقبل . تتهدم منازل الفيتنامي الشمالي وجسوره ومصانعه ، غير ان نفسه تنمو حتى لتغمر العالم . يسلب عدوه ثقته بنفسه واحترامه لحضارته . يمتلىء الفيتنامي الشمالي بالعافية . يحترم نفسه ويؤمن بقدرته على صنع مستقبله . نحن نحمي منازلنا وجسورنا ومراكزنا وتجارتنا وما عندنا من أشباه المصانع ، غير أننا نترك نفوسنا معرضة للقصف والهدم والتراكم حول ذاتها . هذه الأنظمة السائدة تتصرف كأنها مسؤولة عن المنازل والجسور وغير مسؤولة عن صحة النفس العربية .ونعتبر ذلك تعقلا . بذلك يصبح الاستسلام والاستمرار ومجرد البقاء فضيلة الفضائل .

II

أقرأ الآن دراسة حول الطلاب في اميركا اللاتينية .تظهر الدراسة ان طلاب مكسيكو أكثر ثورية من طلاب بورتوريكو ، وأكثر افتخاراً ببلادهم واعتزازاً بانفسهم واعمق وطنية . تعيد الدراسة هذا الاختلاف الى طبيعة التجربة التاريخية ، في كل من مكسيكو وبورتوريكو . كانت مكسيكو اول مستعمرة اسبانية تختار الثورة طريقاً للاستقلال . خاضت ثورة ١٨١٠ وثابرت حتى النجاح ١٨٢١ . وفي سنة ١٨٦٧ ثاروا حتى تمكنوا ان يخلعوا الامبراطور مكسميليان الذي فرضه نابليون الثالث . في ١٩١٠ أشعل المكسيكيون اول ثورة اجتماعية سياسية في القرن العشرين . أما بورتوريكو فلم تتمرد في حياتها .بماذا يفتخر الجيل الطالع في بورتوريكو ؟

هل نحرم من نعمة الافتخار في صنع مستقبلنا ؟ ما هو مصير الجمر تحت الرماد ؟هل ينمو الجمر ؟ هل تشتعل الغابة مرة أخرى ؟

III

أشياء أخرى تترك غصة في القلب . تفوتنا أشياء عديدة . منذ وصولي الى الولايات المتحدة تبينت لي أربع ظواهر :

أولاً ، ان عـداء الأميركيين للعرب قد ازداد بشكل واسع وبوضوح منذ كنت هنا في منتصف الستينات . يشعر العربي انه في محيط متعصب ضده ومعاد لأحلامه وحقوقه . وطالما الأمر كذلك، لا بد من التساؤل حول الجهود الكبيرة التي تبذلها الانظمة ويدعو لها الليبراليون لتحسـين العلاقات ، وحول الاعتقاد بان العداء يعود الى سوء فهم واننا مقصرون في الدعاية واظهار الحقائق . كأن الغرب يجهـل الحقائق ؟ قد يعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا . ثم لماذا يحترم الفيتنامي الشمالي أكثر مما يحترم حليفه الفيتنامي الجنوبي وطبعـاً أكثر مما يحترم العربي ؟ البطولة تفرض نفسها وليس من حوار ابلغ من حوار العنف الثوري .

ثانياً ، ان الحركة الطلابية ، وحركة الاحتجاج بشكل عام ، قد انتهت في اميركا دون شك، وليس من أدلة تبشر باحتمال عودتها الى الحياة . حركة الاحتجاج لم تشرك الشعب ،ثم ان الترف جعل الطلاب الأميركيين يشددون على تغيير الازياء ، وعلى اللذة والتسلية والموسيقى والمخدرات . تقول بعض عناصر الاحتجاج السابقة انها لم تهزم كلياً وانها حولت جهودها الى مجال آخر هو مجال خلق ثقافة مضادة Counter - Culture . انها في هذا المجال تبحث عن الانفعالات السطحية، وتهدف الى التسليـة والتهيّج وتجاوز التعاسة . ثم كيف يمكن خلق ثقافة مضادة دون تغيير البنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؟ لقد اتضح خطأ القول بثورة عالمية تبدأ في الولايات المتحدة . كل ما سيحدث ان اميركا كالفاكهة الناضجة تتعفن من الداخل وستسقط على نفسهـا بنفسها .غير أن هناك حاجة الى هزّ الشجرة.ان المعركة يجب ان تبدأ حيث الجذور تنتشر في تربة العالم الثالث وتمد الشجرة الكبيرة العجوز بالغذاء .

ثالثاً ، ان الشعب الاميركي تعس حتى عروق قدميه . واضح لمن يراقب ان السعادة لا تقطن وجهه وعينيه. مأخوذ ،محتار ، مستوحد ، خائف ، معرض للعنف، مشكك بحضارته . يبحث عن مهيجات سطحية ، تنسيه الواقع الذي لا يفهمه ، ووسائل الاعلام تمارس صناعة الخـداع والتلاعب بعواطفـه . وهو في الواقع يشعر بالشفقة تجاه الشعوب التي تقلده وتتخذه عبرة . اكتشف انه عندما يمنع المخدرات ، تزداد الجريمة .

رابعاً ، ان الديموقراطية بدأت تتكشف على أنها لعبة . الاكتشاف قاس ولكنه يسبب الصمت أكثر مما يسبب الغضب . لذلك يصمت الشعب الاميركي ولا يظهر غير اللامبالاة تجـاه اللعبة الديموقراطية . ليس من قضايا تثار وتثير . ليس من اختيار .

ماذا يعنينا نحن ؟ المهم صنع المستقبل ايها الشعب العريق في ماضيه . ما هو مصير الجمر تحت الرماد ؟ هل تشتعل الغابة مرة أخرى ؟

حليم بركات
(جامعة هارفارد)

شهادات حول العنف والثقافة

جورج خضر

قد يكون العنف أدنى الى قلب الله ، أحيانا

« أردد سيفك الى غمده ، من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ » . هذه القاعدة الانجيلية تقطع كل إمكان للاغتيال ، بل تنفي فكرة العنف اذا مارسه الفرد دفاعاً عن النفس لأن نفسك ليست أفضل من نفس المعتدي. وان كان لك عذر التسرع بسبب الخوف وحب الحياة الا أنه ليس لك ما يزكيك . قبول الموت هنا شهادة فمن مات ظلماً يموت دوماً من أجل «الصالحات الباقيات» . وفي سيرة الرهبان القدامى ما يبرر هذه المسلكية باستمرار .

تتعقد القضية اذا طرحت مسألة العنف الجماعي . عند بولس الرسول ان السلطان « لم يتقلد السيف عبثاً لانه خادم الله المنتقم الذي ينفذ الغضب على من يفعل الشر » (رومية ١٣ : ٤) . ان كل هذا الفصل يفترض في الحقيقة ان السلطان « خادم الله » لخير الانسان . ينطلق من واقع الامبراطورية الرومانية التي كان بولس يرى انها أداة سلام . وهكذا ليس من الصحيح بشيء ان يعتبر هذا الإصحاح الشهير من الرسالة مقدساً لكل سلطان ومقدساً للطاعة العمياء له. وبعد ذلك يبقى بطرس الرسول يدعو لإكرام الملك فيما كان المؤمنون يقاسون الاضطهاد الكثير «ويذوقون الغم اليسير في تجارب متنوعة» (بطرس ١:١٦).

ولكن لا يخفى ان الكنيسة الأولى كانت في سعي الى بثّ الإنجيل ، وهي ، اذ ذاك ، أقلية ضئيلة . واية محاولة لإثارة العبيد كان لا بدّ من أن تمنى بالفشل. وانحصرت الدعوة في التطلع الى ملكوت الله الآتي بعودة المسيح القريبة .

والهاجس الاجتماعي كان محصوراً في المحبـــة تعاش بين الانسان والانسان وفي مشاركة الرزق ولكن هذا كان في فترة قصيرة في أورشليم .

غير ان الفكر الانجيلي اتجـه الى نقد الدولة نقداً صريحاً في « رؤيا يوحنا » . والامبراطورية الرومانية هي الوحش والتنين . رومية هي « بابل العظيمة أم زواني الأرض » (رؤيا ١٧ : ٤) . أجـــل ستنهدم المملكة وترمى في البحر كالرحى (١٨ : ٢١) هنا حكم نبوي ذو مغزى سياسي ولكنه ليس دعـوة الى ثورة . « فصبر القديسين» يبقى الى الأبـد . في الاخير سيملـــك الرب مع الكنيسة العروس .

بعد كلام صاحب الرؤيا بقرنين ونيف تتنصر الامبراطورية ويكتسب رأسها قدسية جديدة فهو «اسقف الشؤون الخارجية» اي انه رقيب الشأن الاجتماعي فيما كان البطريرك البيزنطي يسهر على الوضع الروحي . ولكنه كذلك على قدر اتصاله بالعقيدة المستقيمة . والخروج على مواقفـــه واجب اذا خرج هو على العقيدة الارثوذكسية . من هنا ان الولاء مشروط ، والاطلاقية الامبراطورية غير واردة أصلاً في فكر المسيح لان قيصر يجب ان يخضع لله . وهذا هو المعنى الوحيد الممكن لقوله « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . ليس هنا تفريق بين مملكتين ولكن حدّ لسلطة قيصر بالسلطة الالهية .

ان السلطة في هذا الفكر ،قائمة بنسبتها الى الخير ، وتزكيها المنفعة التي تقدمها لمجتمعها . والا وقعنا في صنميّة السلطة ، في اطلاقية الإنسان .

ماذا يحصل اذا ذهب المجتمع الى ان الدولة عالية ، اذا تبين له ان استمرارها يؤذي الانسان أذى كبيراً ؟ ان المشكلة لتزداد حدتها في العصر الحديث بسبب التماسّ الكبير القائم بين الدولة والمواطنين . فالدولة أضحت كلية في كل الانظمة. تـكاد ان تكون بوليسية تحت كل سماء . ومسؤولياتها تتناول ليس الامن كما كان في السابـــق وحسب بل كل أسباب المعيشة والثقافة ونمو الانسان وفكره والتعبير عنه .

الدولة أقتحمت كيان الفرد اقتحاماً رهيباً بحيث ان في يديها أدوات خـير وشر قد تكون كبيرة جداً وكثيراً ما تسحق الانسان في كرامته وتذله اذلالاً. فالتساؤل الذي لا بد من وروده هو هل من اختيار بين ظـــلم يدوم ليشتّت الانسان ويفنيه وبين ثورة تأتي بحكم له مقومات المجتمع الجديد ؟ ان مشـكلة

العنف مطروحة فقط على هذا الصعيد . تأكيد العنف ينطلق من الايمان بأن الانسان الجديد آت ، لا محالة ، من ثورة قائمة على نظام وايديولوجية سياسية . وهو مرتبط بأن هذه الايديولوجية منشئة لاخلاق جديدة تحضن العمل الثوري وتنجيه من سقطاته الممكنة . الثورة متصلة، ضرورة، برؤية تقدمية للتاريخ ، نابعة من غور الزمان ، من قوى الإنسان في تطلعات التحرير . اي انه ايمان بدينامية صالحة تفاؤلية لا تعرف المأساة ، ايمان بأن الخطيئة منسوجة في البنية الاقتصادية الاجتماعية . الصحيح هو في الآتي ، من الآتي ، من الجهد البشري الجماعي الذي يثبت الانسان الجديد اذا ما زالت الطبقات .

أما اذا كانت لنا عن الانسان رؤية دون تلك تفاؤلية وحرة من التقدمية الحتمية فقد نكون أكثر تردداً في الدعوة الى العنف . نخشى ، اذ ذاك ، ان يولد العنف العنف ، أن تدمر الثورة نفسها ، أن يعود الانسان الثائر عن جدته الى برجوازية روحية ذهنية يسقط فيها فيتربع في آلية النظام الذي لن يكون أكثر من الماضي جدة .

ان خبرة الثورات الفاشلة تجعلنا في تردد كبير أمام شرعية العنف لان مشكلة العنف ليست مطروحة على صعيد التزكية المناقبية بقدر ما هي مطروحة على الصعيد العملي .

ولكن مما لا شك فيه ان المحافظة على النظام ليست أقرب الى الله بالضرورة من الثورة على النظام . فقد يكون النظام في بلد ما أفتك من أية ثورة متوقعة. النظام دائماً تحت المساءلة وقد تصل المساءلة الى تحدي الانظمة القائمة وهزها . وقد يصل بنا النقد الى الشك الكامل في صوابيتها وامكان البلد على العيش الكريم في ظلها قد يصل الوضع الى ثورة شئنا ذلك أم أبينا. علينا ، اذ ذاك، ان نكون مع الانسان ، مع المظلوم الى أية فئة انتمى . نحن نسائل كل القائمين على الاوضاع . نندمج بالذين يسحقهم النظام والذين تسحقهم الثورة . ولكن المتطلعين الى الحرية ، الصارخين صرخة العدل ، المتألمين مع صعاليك الدنيا لهم في حناجرهم نبرة من المسيح هي على حدتها أصدق من مواعظ الفريسيين .

لا بد من المغامرة . قد يكون الصبر سطحياً ، تخاذلياً لا علاقة له بأعماق الروح الإلهي .قد يكون العنف أدنى الى قلب الله ، أحياناً . ليس ، في هذا المجال ، من مطلقات . المهم في كل موقف أن نطلب الانسان .

جورج خضر

نجيب المانع

كيف نزحزح قروننا الوسطى ؟

ما زلنا في قروننا الوسطى حيث الزمان امتداد محايد يغيب عن تحريكه أو حركته الانسان ، واللغة مجوفة قاموسها كلمات مومياثية : الشكل جلد ضامر موحش لكنه باق ألوف السنين ، وحيث الاخلاق سكونية مهما ضجت بالحركة الجسدية والعضلية لأن أعلى قيمة فيها عرض القبيلة المهدد أبداً بالسبي ، ولا قيمة فيها للأخلاقية الشخصية المدركة لمسؤوليتها عن انشاء قيم لا اتباعها . وما يوجد من قيم اخلاقية جديدة انما هي امتدادات وتشكلات جديدة للقبيلة الخائفة من الغزو الأبدي .

لم تحدث بعد ثورة ديكارتية في الفكر العربي تغسل الصديد ، وتزيله من المفاصل المشلولة خنوعاً لكلمات الاجداد العنيدين في معاصرتهم والمعاصرين المعتيقين جداً: اشاراتهم شبحية وأصواتهم كهفية الغرض. منها الاخافة وتنْميط البشر في انسان واحد يسهل عجنه وتشكيله حسبما تقتضيه مصلحة التسلطية القبلية .

الثورة الديكارتية هي تعريض المؤسسات والسلطات والاخلاق واللغة والموروث الى رياح العقل المجتث لها من الجذور هاجماً على قلاعها التاريخية حيث اكتسبت، بحكم دوام القبول والاعتياد، ارهاباً مانعاً لحرية الذكاء . ولا بد ان تكون الثورة الديكارتية الجديدة مؤسسة على غير ما استشرفه ديكارت من مدركات فقد تراكمت على عصرنا مقبولات أكثر مما واجه، وفيه من امكانيات الخروج عن المسلمات أكثر مما توصل اليه ديكارت من يقينيات تصالحية أنكرها في مبدأ الأمر . ان العصر الحديث فيه أكثر وأقل من الثورة الديكارتية الأولى في الوقت نفسه ، ولكن تبقى الصيغة الأساسية سليمة وهي البدء البكر ، الانطلاق من درجة الصفر ، التقدم في الأرض التي تكتشف لتوها ، لا سلطان فيها لغير الصحو العقلي المنتقل من جزئيات الى كليات لا من كليات الى جزئيات : الجزئيات هي ملموسية الوجود تتصاعد الى كليات الادراك ، اساس الثورة العلمية الحديثة كلها .

في الثورة الجديدة تصاغ المبادىء عبر تاريخ يعايش الجهد ويتنامى معه ولا يتخلف عنه في

اية لحظة ، وعندها يصير التاريخ كياناً مشبعاً بالحضور ، يمتلك الانسان معه شيئاً مما يضفي على الله : الحضور الخالص ، او ما يمتلكه الفنان الخالق حيث يكمن في السمفونية تاريخ الموسيقى لا صعوداً هرمياً بل تعاصر . كل سمفونية نفي لكل الموسيقى وحلول فيها ، هجرة وعودة ، تغرب واستيطان ، جوهر وتحول .

ما لم تحدث هذه الثورة في الفكر العربي وفي الموقف العربي من الفكر ، (وهما أمران متصلان ولكنهما متمايزان) تظل علاقتنا بالعالم ثيباً لا بتولية ، استمرارية لا منشئة ، لاحقة لا بادئة ، آخذة لا معطية ، خانقة لا متمردة ، منفعلة لا فاعلة .

بين الخليج والمحيط تربض جامعات ما أكثرها وما أقل ما تقدم غير التهيؤ للعيش . في أي منها يعشق العلم عشقاً لا نفع وراءه ولا غاية سوى لذة البحث عن الحقيقة والتوغل في أرض الحقائق البكر ؟ هل نجد لدى كثيرين من مرتاديها سلوكية حب المعرفة أقوى من سلوكية نوال الشهادة الموصلة الى عيش ممكن ؟ فهل ابتعدنا كثيراً عن الروح السيميائية حيث يحاول الانسان (باخفاق لانه سلوك سحري) تحويل المعادن الى ذهب ؟ في الدراسة والتدريس الجامعيين تحول الاوراق الكثيرة المقروءة على عجل الى مرتب شهري . أولا نرى في هذه الدراسة اللاهثة في نفعيتها أحد الاسباب في ندرة البحوث والكشوفات الأصيلة والاختراعات المغيرة للحياة ؟ مقولة ان الانسان «يأكل لكي يعيش» عدلت تعديلاً بسيطاً الى «يتعلم لكي يعيش» واذا كان التكسب بالشعر معرّة تأخذها على الماضين فان التكسب بالعلم لا يثير أحداً .

التصوف والوجد العلميان ، الهوس بالمعرفة ، لم تصل بعد الى حرم الجامعات بل يصل اليها بين الحين والحين أفواج من الذين يقول عنهم أحد الشعراء « في ايديهم رصاص ورؤوسهم رصاص ورصاص احذيتهم » لتعليم الجامعات كيف تلازم مكانها في خدمة السلطان .

الا نرى الموقف السيميائي ايضاً في تلك المعارك التي تخاض (او لا تخاض) على مستوى الحلم بالنصر والنصر السحري ، وليس على مستوى التدقيق في الادوات والمعرفة الواعية بالخطوات الحقيقية على الأرض والسماء الحقيقيتين .

سيمياء في العلاقة مع التراث بحيث صار رصيداً مخلداً في بنك الدعة نبعثره ونتصور اننا نستثمره ، اما أن يكون تاريخاً يهزنا بالطريقة التي نهزه بها فذلك موقف كيمياوي ، موقف التعرف على الثوابت والمتحركات ، يوزن معه كل شيء انتقالاً من المعقول الى المعقول الى مليون جزء من المعقول ، حتى يتحقق بالوعي والمسؤولية والعلم الفرح (والتعبير نيتشوي وان كنت لا أعني ما يعنيه) ما لا يتحقق بالحلم وانتظار القرقعة السحرية .

مع اللغة نتعامل بسلوكية سيميائية سحرية : بعد افراغ كلمات القاموس الآخذ في الضمور بالضرورة (كما كشف ذلك اورويل) تعاد في كل ساعة على شكل هذيانات سحرية غرضها تحريك الاشياء ومصائر الناس تماماً كما يفعل الساحر الهمجي اذ يبربر بلغة لا معنى لها تجاه الريح او من أجل طرد روح شريرة تقمصت مريضاً .

المطلوب تغيير اساليب التفكير لا مدارسه او نظرياته وحدها : فقد يبقى الانسان من مواطني

القرون الوسطى حتى اذا احتضن احدث النظريات ثورية، اذا ظل اسلوبه في الاقتراب منها بعيداً عن الروح النقدية الخلاقة المعطية كما تأخذ، اذا ظل ينظر الى ما يدخل في قناعته على انه رهيب محتوم مسلح بسلطة قاطعة : لا أستطيع ان أجد بعداً كثيراً عن روح القرون الوسطى لدى من يتعامل مع مؤلفات لينين مثلا بذعر المقترب من ضريح مقدس، ولينين ما كان بالتأكيد يريد من أحد ان ينظر اليه بمثل هذه الرهبة الفكرية، وما كان يريد لمؤلفاته ان تكون قبراً . كان كثيرون ينظرون الى ستالين ومؤلفاته بمثل هذه المهابة الارهابية حتى اعيد الى حجمه الطبيعي فتنامت عقولهم الى حجمها الطبيعي بعد ان كانت ضامرة بالخوف من قداسته . يتحقق الخروج من القرون الوسطى بما يخرج من الفكر من نشاطات وآراء لا بما يدخل فيه فحسب . وموقفنا السائد من المعرفة هو الحشية والتجميع لا الإضافة والاسهام، تحويل الكشوفات التي بذل فيها جهد حياة واستحصلت بمراس ذهني فعال وصعب الى بديهيات منتزعة من التفاعلات الكامنة وراءها ومنفصلة عن حركية الحياة ومسؤوليات الخطأ والصواب . نهاية السفرة هي الحصيلة التي تختطف خطفاً ولا اهمية للمسار الذي قطعته الرحلة . القولة هي المطلب الأساسي لا علم القول وفنه، والفكرة لا عملية التفكير وتشعباتها واحتمالاتها . البحث عن اليقين لا البحث عن الحقيقة. الجواب لا السؤال : واذ يكون الفكر محشواً بالاجوبة تتسرطن فيه الكبرياء اكتفاء ثم ينغلق ويضمر فيشح الحوار وتقل امكانيات البدائل والاحتمالات والتراجعات عما يظهر انه خطأ فعلا ثم تقام الجدران العالية تحمي تلك الاخطاء من الكشف، فليست قلاع القرون الوسطى حجرية فقط بل فكرية .

ان أفظع شلل موجود في حياتنا العقلية هو الندرة المروعة في الأفكار الجديدة. نحن لا نقدم نظريات بل النظريات تتقدم لنا فننفعل بها قليلا ثم نحنطها ونضمها في الكهف الذي نضع فيه كل ما نخشى منه او عليه : تراثنا، تراث العالم، أنفسنا، الآمال العريضة، قواميس الضجيج، الأسئلة الخطرة، الاجابات الجاهزة، ردود الفعل المتشنجة بدل الفعل، والسحر هنا ان الملموسات تصير لا شيء، انها سيمياء متقدمة بعض الشيء فبدلاً من تحويل المعادن المنيدة الى ذهب، يصار الى تحويلها الى عدم . الهزيمة تصير لا شيئاً فقد أودعت في كهف النسيان منذ انتهى رد الفعل التشنجي بشأنها .

علينا ان لا نخاف من السؤال التالي مهما يكن مزعزعاً فربما كان ذلك ما نحتاج اليه : من هم بيننا الذين ينظرون ويضيفون اضافات جذرية أصيلة الى ما يلي : الماركسية، الفيزياء الذرية، علم الحرب، الثورة الخضراء، الاخراج السينمائي، الفضاء، الدبلوماسية، الموسيقى، علم الحشرات، التلوث، البحوث الالكترونية، بحوث السرطان، علم الآثار، علم النفس، الفلسفة، الكيمياء، المكننة، والقائمة تطول الى حد السخف . اريد ان اسمع اطراء لفلم عربي (وهذا أضعف الايمان) وأود ان أرى فلماً عربياً غير مصنوع على المستوى التحت بشري . فاذا كان الفلم العربي يشكل اشارة للمستويات التحتبشرية في ميادين أخرى أعلى منه في سلم الأولويات فهذه هي العصور الوسطى .

ماذا ؟ هل العقل العربي أشد قصوراً من غيره ؟ كلا ، ولكنه عقل عبد، لا يقدر على الحركة البعيدة في مناخه الراهن، وكالطير في القفص لا يستطيع التحليق . الفكر العربي المعاصر لا فقري كحيوان الاسفنج، هذا اذا لم نقس كثيراً ونطلق عليه وصف الحجيرة الواحدة،

وحتى الحجيرة الواحدة تتكاثر بالانشطار ، والفكر العربي المعاصر واحد وحداني متوحد (وليس هذا جناساً لفظياً بل كل كلمة تعني بعداً معيناً) يصعب عليه التكاثر والتنامي والازدهار والتوهج فتلك من سمات النهضة وما زلنا في قروننا الوسطى . وأول شرط للخروج منها هو الوعي باننا فيها ذلك لأن من هم فيها ولا يدركون انما يزيدون تعميق اقدامهم في رملها المبتلع : ادراك ابعاد قروننا الوسطى التي نحياها (او التي نموت فيها بعبارة ادق) . قد يصنع مقومات التحرر منها ، وكما قيل في مقدمة الحديث ان بعض ابعادها هي : الموقف السحري السيميائي من العالم ومشكلاتنا فيه ، القبيلة والعشيرة وما تتضمنه من انعزالية ونظرة متخوفة من العالم والمعادية له بسبب الخوف ، المحلية والاقليمية ، الاكتفاء بان ما هو موجود ماضياً يكفي لتمشية الحاضر ، أما المستقبل فله رب يحميه ، تحريم الفكر النقدي والشكي ، قبول ما هو مفروض من الأعلى فكراً أو سلطة او قوة او انتساباً لعشيرة من العشائر ، والعشائر تتخذ ازياء عديدة ، فالعشيرة الصحراوية زي ، والعشيرة الحربية زي ، والعشيرة العقائدية زي ، والعشيرة الدينية زي آخر ، ولكل منها محرماتها وعرضها الذي يخشى عليه من السبي ، واعداؤها الذين هم كل من عداها ، وتحالفاتها الناجمة عن الرهبة او المنفعة انتظاراً للوقت المناسب كي تتحلل منها . هذه هي القبيلة الضاربة خيامها ، لا في الصحراء فقط بل في الفنادق الفخمة والسيارات الفارهة والمكاتب اللامعة المهيبة : خيام القبيلة هذه المصاعد الكهربائية والعمارات الشاهقة ومؤتمرات النوم المتقطع حيث يستمع الى رغاء الابل كخلفية موسيقية للخطب الرنانة والآراء التي لا تقدم ولا تؤخر ، القبيلة بانغلاقها وصحراويتها وبحثها عن الكلأ وهياجها من أجل بعير . المطلوب تشريد القبيلة وردم الصحراء ، هزيمة الصحراء في الطبيعة والعقول والقلوب لكي تنتصر المدينة ، مدينة النهضة واليقظة والوعي ، مدينة الصحو والامتداد المحسوس المتلىء مكان الصحراء ذات الامتداد اللامحسوس الفارغ ، مدينة الحرية والتراث المنقول من ظلمات الكهف الضيق الى ابهاء العصر الوسيعة .

انتصار واحد قد ينفع في فتح باب من أبواب النهضة المغلقة ، انتصار غير كاذب سواء في الجبهة او في المجال الدبلوماسي او في مجال الفضاء او الطب ، ان اي انتصار له ديناميكيته الخاصة فهو يتوالد انتصارات ، يحرك البنية البشرية ، يقتل الحذر ، يملأ الارادات بنشوة مستقبلية ، بارادة التغيير ، يكون هو التغيير . الانتصار في اي ميدان حتى لو كان أكثرها تفاهة : فلم عربي يضارع افلام ايزنشتاين مثلا ، لتتحرك السينما وربما المسرح وقد تتحرك الرواية (التي هي الآن إما زولائية مكفنة او مطنطنة بحداثة كاذبة) .

لا بد من الاقرار بان هناك واحات انتصار في صحرائنا ومنها واحة الشعر والرسم ولكنها لم توصل خضرتها بعد الى اقاليم اخرى في الوعي بالنهضة . انها تنتظر من يتحالف معها في الكلمة الفاعلة .

يصنف اليوت الوعي الثقافي ثلاث درجات ، ادناها المعلومات ثم تسمو الى المعرفة ثم الحكمة وهي اعلاها وانطلاقاً من مقولته ارى العالم العربي مكتظاً بمن لديهم معلومات ، فاذا امتاز بينهم نفر قليل فهم يراوحون في ميدان المعرفة حيث تنظم المعلومات وتنسق المدركات وتوضع في الخدمة لمن يشاء ، ولكننا سنعيا بحثاً عمن يصلون الى مرحلة الحكمة ، مرحلة خلق الأفكار لا تناولها وتنسيقها فحسب ، مرحلة المواجهة المباشرة بدون وسيط بين العقل المجرد والعالم ،

حيث يمارس الانسان ايقاعاً عقلياً وروحياً يصنعه هو ويبدأ به ويمطيه : العقل الحكيم متناسل متكاثر بطبيعته ، ولأن الحكمة المقصودة فقرية ولود فهي تختلف اختلافاً جذرياً عن الحكمة الهندية التي تخصي العقل في تأملها المومياني في فراغ اللاشيء ، واذا نطقت فكلماتها تشكل عالماً مستلماً عقيماً عنينا .

متى تتوفر الأفكار في نصيبنا من الكرة الأرضية أكثر من توفر النفط فيها ؟ أليست النظرة شبه الساخرة الينا سببها اننا لا ندعم النفط الذي لا يد لنا فيه بافكار موازية له في الثراء ؟ ينظر الينا كبدو تحت رمالهم ثروة لم يصنعوها . أليس الأفضل لكرامتنا أن ينظر الينا كمدنيين تتفجر عقولهم عن كشوفات يكون النفط واحداً من عبيدها ؟ انها مرحلة يتحتم على العقل العربي ان يصل اليها بعد التحرر من القرون الوسطى ، فلم يعد هناك استعمار نتكىء عليه تسويغاً لعدم المقدرة على الحركة وكل ما ينقصنا صرنا مسؤولين عنه مسؤولية كاملة ؛ وانها لمسؤولية ما زلنا نتهرب منها عبر اختلاف مزيد من القبلية والعزلة واعادة ما مات من الماضي والانبماج في الشخصية تعويضاً عن نقصان العافية الحقيقية .

لدينا تراث . فهمنا ذلك . لنا رقعة كبيرة من الارض . فهمنا ذلك . لنا ثروات ، فهمناها . ولكن هل نمارس حرية الفكر وهل نخلق عوالم جديدة انطلاقاً منها ؟ هل نضع حرية الفكر في المكانة الأخلاقية التي تعلو على الشرف والعرض واكرام الضيف ؟ هل استطعنا ان نبعد العيون عن النقل شغفاً بالعقل ؟ الا نحتاج الى تطهرية اخلاقية عنيفة بازاء حرية الفكر بحيث يحدث ثلمها هزة واحساساً بالعار ما يوازي ثلم الشرف وانتهاك العرض ؟ تبدأ المكرمات من حرية الفكر والابداع ، فيها تتحقق للانسان امكانات لا تحققها الاخلاق التقليدية وحدها ، المكرمات المدينة : فلم تعد في الصحراء فضائل ، الفضائل كلها تسكن المدن الآن ، ومن يبحث عنها في الصحراء يكن كالاصمعي لاقطاً لابيات وكلمات متنافرة شاردة .

متى تزيل اللوثة العالقة في شرقنا العقلي باستيطان مدن العقل المفتوحة على العالم وتواريخه ، المنارة بالخبرة الخلاقة ، تشرق كل يوم أقوى بثاً من شموس المجرة ؟

نجيب المانع

حليم جرداق

ضوء في الظلام الكبير

1

غيوم فوق الرأس لا تنزاح .. ثقيلة باردة سوداء . وكل شيء معتم .

نزلت الامطار لا تميز . لجأ الى الكاتدرائية . دوّار الزجاج الملون الكبير فوق المذبح منطفىء . لا يُرى في الداخل غير شمعة مضاءة عند المذبح . في الخارج ، غضب عاصفة شعرها طويل . شمعة مضاءة عند المذبح ... ضويؤها وحيدٌ في الظلام الكبير . هالته ذهب صاف ، وحرارة تسبح فيها البحور . تجمّع فيه ما بقي في الارض من نور . نقطةُ ذهب في المياه السوداء . مدارها الخطوات الثلاث ... الحدود الثلاثة . ماذا يستطيع فجور العاصفة أمام ضويء شمعة ؟ ضويء في الظلام الكبير يطغى على الظلام الكبير . يخرس صخب العاصفة . وطار الارغن فوق رأسي . واكتنفني قلب الرمانة التي هي الكاتدرائية . وافكاري لمع النجوم . ورأيت الشمعة تمتد الى الشمس المنطفئة وتشعلها من جديد . تبددت الغيوم ، وبرزت الشمس تتوهج . ودفق النور من خلال دوّار الزجاج الملون الكبير . ألوانٌ وأنوار وألوان ، ملأت الكاتدرائية ، وانتثرت عليه . وخرج من الكاتدرائية ، وفي قلبه ألوان لوحة جديدة .

II

زَلِقٌ ، يحضر السوق . يعرف كل الحركات واللعبات . يجلس في الشباك . محطة . يضغط نفسه ليصير على كل شفة ولسان. يستحلي السكن هناك .. على الشفاه واللسانات . مرموق ... يتدجج ويجلس في الشباك . مقعده معروف . يعرف كل اللعبات والحركات. يكتب على كرسي من ياء .

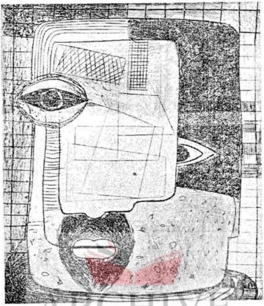


III

ما عداه ... لا يندفع . لا يهتاج ، ولا يُستعمَل . لا ينتظر احداً .. ولا يريد ان ينتظره احد. مزاجه مزاج الجبل. ينهمر على الورقة .. يأخذ خطا ويمرره هكذا . يأخذ لوناً ويبسطه هكذا. يرمي الورقة. يلتقطها مار .. فتخضّ الحي .

أخذت ايمازي من طائر وطعنت العجل .

أحب السائل الثمين ، المداد الترحابي ، نبيلاً يدفق من الشسوع الخطر . رفضت ان انزل النجيع الى مستوى الوسيلة . ودخلت في الرائحة وشوقي الى لقاء المنكب في فلك الزهرة ، كوفرة الاكواز على الصنوبر .



وكنت شديداً في تهديم قوى الوهم ، والوقت لا يطالني ، واطمأننت الى اني أخص كل هـذه العظمة . وفي نزولي الى القرار ، تشبثت من مراكز الشمس والقمر والكواكب ، وسرت الى اقصى النسيـج ، في امتداد وجـه البحيرة ، وبرك القرمز ، وادغال الليف والشبك ولفائف الخيوط المتناسلة ، ووضعت العربون في الصحن . ومـددت اصبعي ولمست القعر ، فاختل توازنه وانهمر الرسم .

النسيـج يتحلل يتنسل وينحبك نسجة جديدة . يتحول العجل الى حورة تأنلق في الشمس والنسيم .

V

درج حلزوني يتكون في الرسم . ورأيتهم يتمايلون بالتابوت . يصعدون درجة درجة بالجهد . ضجيجهم مرتفع في ضيق الادراج الملولبة التي تعلو وتعلو وتزداد ضيقاً.ولهاث العياء ، والجلبة تسمـع مع ازيز التابوت الذي يكاد يسقط من التأرجح . اطللت من شباكي، فرأيتهم هكذا يتأرجحون به على الدرج ، ولا يستطيعون الوصول الى الكنيسة .

وبعد لأي بلغوا رواقاً يصل الى غرفتي ، وهو رواق لا يخلو من ممشى الباخرة الطويل الضامر الذي تمايلت فيه مرة انا والركاب كالسكارى .

قالوا : دعنا نضع عندك التابوت لوقت قليل . الادراج ضيقة ولا نستطيع الوصول . نذهب الى الكنيسة ، نجنتز ثم نعود ونأخذ التابوت . قلت : لا مانع .ضعوه تحت السرير . هذا لا يضايقني . وعدت وجلست على السرير ، وتابعت حديثي مع رفيقي ...

... الا تشم رائحـة ؟ قلت لرفيقي بعد قليل ... رائحة آتية من تحت السرير . من التابوت ولا شك . بلى انها رائحة تنبعث من كتفه ، قال رفيقي . رفعت غطاء السرير فرأيت التابوت قماطاً من نسيج ابيض مشدود شداً محكماً على جثة تحرك رجليها .

كان دهراً قد انقضى على ذهابهم الى الكنيسـة ، اين هم ؟ صعدت الى الكنيسة فوجدتها أكثر من فارغة من جراء الكِبَر غير العادي الذي رأيتها عليه . ولم ار مقاعد . وبدت الفسحات بين الأعمدة اوسع مما كانت ، وقد ازداد عدد الأعمدة . ورأيت الحيطان معلقة وهي ممتلئة حاضرة مصبوغة بالصور والايقونات التي تصنع العجائب . فاستغربت ان الحبر لم يسرقهـا بعد . ورأيت ورقاً كثيراً . والجو نحاسي مسدول من سكينة الهجران والغَسَق . وامتزجتْ بالاستهجان والغضب . ذهبوا وتركوا التابوت تحت سريري ونزلت الى الباحة . رأيت أولاداً قالوا : ورأيناهم ذاهبين من زمان. صحت بالحي. أتى رجال أمنٍ، وأتى آخرون . وصعدت الى غرفتي ورأيت الرواق يتسحب الى اروقة كما تتسحب الجوارير بعضها من بعض . والغرف تخرج من الغرف وهي تتلوى وتتكيّفـ وفق ما كان يفرض عليها نظري من اشكال . وفكرت بالسكن في غرف معجونية لا يخشى منها في الهزات والزلازل . ثم نزلت فرأيت المدخل تغيّر الى ما يشبه الدهليز . وكان هناك مساطب عديدة مختلفة المستويات والاحجام ، والجو من شجر الورق الذي ذهب منه اللون الازرق . ووسع الدرج عند اقصاه في الرسم . ثم رأيتهم نازلين بالتابوت . وكان مفتوحـاً . ورأيت الميت ممدداً مسطحاً رقيقاً مثل كرتونة مقصوصة على شكل انسان . وكان معصوب الرأس ، يصيح ويرفرف بيديه الكرتونتين. واقتربت مع الجمع وصرت كأنني وحدي . وبدا التابوت أمامي صندوقاً عريضاً قليل العمق مثل «الكشة» ومغطى بزجاج . وكان مملوءاً بأشياء واشكال عجيبة الصور والصبغ. اشكال مرقوشة بنقط وزيوح صفراء وبنفسجية وزرقاء وليمونية وحمراء وخضراء، وكلما اشتق منها من ألوان محروقة ولماعة . ومنها اشياء مطروشة ببقع وتماشيح تذكر بأشغال المساجين . ورأيت حصى مضروبة بوشمات عجيبة محيّرة منها ناتىء ومنها محفور كأنها اختام المصائر والاقدار. ورأيت أشكالاً كروية وبيضاوية، واشكالاً كأكواز الصنوبر وكبوش التوت والعليق، وكلها من معادن لا اعرف اسمها ؛ وقد تفرقعت وانفرزت عن شقوق وفتحات مهندسة ، توصوص من خلالها ألوان بكر . ورأيت رمانات وفقاقيع ومنتفخات من حجارة نادرة مشققة عن ألسنة وخطوط من النور الشعشعاني الملون المتجمّد الى حلمات وأزرار وتغبنات وما يشبه الآذان والابواق والاصداف . ورأيت كرات ومكعبات من بلور في قلبها ازهار وعصافير واسماك ألوانها مضيئة لا يوجد عندنا منها . وعرفت ان الاسماك هذه لا تعيش الا في اعماق المحيطات حيث الظلمة المطبقة والعماء الكلي . وتعجبت ... ماذا تصنع اعنف الالوان واحلاها في الاغوار ، حيث لا نور ولا نظر .

وصار هناك جمع كثير . وكان الميت يحاول ان يجلس او ان يقف . وهو يرفرف بيـديه المرقوقتين ، ويصيح : اللعونة الملعونة تريد ان تدفنني حياً . وكانت هيئات الرجال والنساء كرسوم فحم ركيكة وسختها المحاة . وقالت بعض النساء : انه مجنون ، الا يعلم ان زوجته ماتت من زمان ؟ وسمعت واحدة تقول وهي تحرك يديهـا حركات مشؤومة : هذا هذا هو الجبار . موته بطيء . صار مثل كرتونة . انظروا .. صار مرقوقاً مثل رغيف . لم يعد فيه شيء يتحرك غير ذاك اللسان .

حليم جرداق

(الرسمان بريشة حليم جرداق)

بشير الامين

الوضع التربوي في لبنان ، كبنية عنفية

لا بد لأية دراسة تربوية علمية من أن تلقي النـور على الوضع الاجتماعي من الناحية السكانية ، وتوزيـع القوى العاملة ، وطبيعة الاقتصاد من حيث بنيـة قطاعاته . فالتعليم يتبـع شاء أم أبى تركيب المجتمع الذي يعيش فيه . وأزمة التربية ناتجة في الأساس عن أزمة اجتماعية ، والحلول بالتالي مترابطة .

يبلغ سكان لبنـان حسب آخر الاحصاءات (١) ٢،١٢٦،٠٠٠ نسمة حتى ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٠ . يقيم ٤٥ ٪ منهم في بيروت بكثافة ٢٦٣٨٢ نسمة في الكيلومتر المربـع الواحد ، و٥٢ ٪ من اللبنانيين سنهم دون العشرين و٤٢ بالمئة هم بين ٢٠ و٦٥ سنة . والجديد في الأمر أن عدد الذكور أكثر من عدد الإناث بنسبة ١٠٣ رجال لكل ١٠٠ امرأة .

يبدو التعدد من أكثر المظاهر الاجتماعية اثارة في لبنان ، فمع هذا العـدد الضئيل المـوزع على عشرة آلاف كيلو متر مربـع تعيش عشرات الفئات الاجتماعية ، في استقلال ايديولوجي مدهش . فعلى الصعيد الجغرافي لا تزال قيم المجتمع الزراعي القديم سائدة في الريف (البقاعي والجنوبي والجبلي) : العائلية ، المحافظة ، الوصاية على الأبناء والتبعية السياسية الوراثية . وعلى الصعيد العنصري نجد الدويلات الاجتماعية من سريان وكاثوليك وأرمن وكلدان وأكراد وغيرها تعيش في جماعات مقفلة تحيي تراثهـا وتعمل على ترسيـخ قيمها الخاصة في نفوس أبنائها .

ولا ننسَ ان الوجه الاكثر حدة للتعدد اللبناني هو الطائفية . وقد انتقـل

تواجـد عدة طوائف (١٧ طائفة حسب « الاحصاءات الرسمية ») من حالة التعايش الى حالة الصراع الدموي ، الى الاختلاط الحذر ، وقد أحيت هـذا الصراع الفئـات المستغِلة المستفيدة ، وغذّته سابقاً الدول الاجنبية في محاولة لكسب مواقع اقتصادية وسياسية عند بوابة الشرق الاوسط .

الا أن الانقسام الطائفي سرعان ما تخف حدته وتتلاشى أمـام الاحداث ذات الطابـع السياسي والاقتصادي فحول قضايا مثل مساندة العمل الفدائي أو ضربه ،تأميم استيراد الأدوية أو عدمه ، قانون الايجارات ، تعود الانقسامات فتتخذ وجهاً آخر مرتبطاً بالمصالح الاقتصادية للفئات على مختلف الكتل السابقة . وبكلمة تعود الانقسامات لترتسم بخطوط أفقية تفصل بين فئـات مستغلّة تريد أن تحافظ على مواقعها وفئات فقيرة ومستغلّة تريد تحسين أوضاعها .

والتفاوت الاقتصادي يبدو هائـلاً في بنية المجتمع اللبناني وإذا تركنا العـمال والاجراء والمياومين والمزارعين والموظفين الصغار وتصفحنا بعض المناظر المحليـة ، نرى مثلاً : قرب طريق المطار يقطن حوالى ثلاثة آلاف لبناني ، يسكنون في بيوت من تنك دون ماء أو كهرباء ، مما حوّل اسم المكان من «حرش ثابت» الى « مخيم ثابت » يجاوره أكبر شركة تأمين اميركية ، وبعض الابنية الفخمة والفيلات والمدارس الكبيرة ولا ننس برج البراجنة والشيـاح وبرج حمود والمكلّس ، فالنماذج عديدة وما على المصوّر الا أن يلتقط ، فثلث اللبنانيين فقراء ، وربعهم معدمون ، وثلث آخر متوسط الحال والبـاقي «طغمة مالية» .

لهـذا التعدد الاجتماعي وجه حضاري . فبين بيروت المزرعة أو الحمرا وهرمل البقاع فارق كبير جداً في مستوى الثقافة ومقدار الخدمات الصحية والتعليمية والعمرانية ، ونمط العادات ، وعدد أعضاء الكوادر العليا ومقدار الاستهلاك (كاستهلاك المحروقات حسب تعبير الاقتصاديين البورجوازيين) .

من المظاهر الاجتماعية البارزة أيضـاً مسألة الهجرة ، نحو المدينة والخارج مما أدى الى فقـدان عنصر الشباب في الريف ، وبقائه على حالة من التخلف الاجتماعي والاقتصادي رغم دخول «عناصر الحضارة» اليه من راديو وكهرباء وتلفزيون وغيرها . وقد يقول البعض إن هـذه العناصر لا تطوّر بل تبقي على التخلف على أساس أنها استهلاكية مئة بالمئة وإنتاجية صفر بالمئة . ليس هـذا فحسب بل انها وسائل إغراق ايديولوجي ، تنشر نماذج من الحياة والتفكير ،

يعيشهـــا أصحاب هذه الاجهزة وممولوها وتجارها وسماسرتهم . هكذا يبقى المواطن منفعلاً وليس فاعلاً : مظاهر أوروبية معممّة ، انتاج محلي سلعي متقهقر ، تسلّط سياسي اقطاعي ومدرسة رسمية فقيرة مكمّلة .

الطاقة العاملة

القوى العاملة الفعلية في لبنان ضئيلة ، فهي تشكل ٢٧ بالمئة فقط من مجموع السكان . وهذا راجـع من ناحية الى ظاهرة الفتوة التي يشترك فيها لبنان مع كل الدول المتخلّفة أو النامية فان ٤٢ ٪ من اللبنانيين هم ، كما ذكرنا ، دون الخامسة عشرة ، ومن ناحية ثانيـة الى انخفاض نسبة العاملين بين الاناث التي لا تتعدى ٢٥ ٪ منهن و١٧،٥ بالمئة منهم (مجموع العاملين) ، أضف الى ذلـك ارتفاع متوســط سن بدء العمل بالنسبة للذكور حتى العشرين بسبب طول سنوات الدراسة الناتـج عن سوء تنظيم الهيكل التعليمي وقلّة المدارس المهنية . وفي النهاية فان **واحداً فقط يعمل من كل أربعة لبنانيين** .

وإذا تتبعنا توزيـع هذه القوى على القطاعات الاقتصادية ، فاننا نلحــظ زيادة بسيطة على نسبة العاملـين في القطاع الصناعي ،فبلغوا ١٧،٨ بالمئة من المجموع ونسبة كبيرة وصلت الى ٥٥ بالمئة يعملون في قطاع الخدمات . ويبقى للعاملين في الزراعة منه ٢٧،٢ . على أن معدلات الانتاج غير متناسبة مع نسبة القوى المنتجة ، فالثلث الذي يعمل في الزراعة حصته ١٥ ٪ فقط من الدخـل القومي بينما تسهم الخدمات بـ ٦٨ ٪ وتسهم الصناعة بـ ١٧ ٪ والبناء بـ ٥ ٪ .

كيف تتوزع هذه الطاقة جغرافياً ، ومن حيث مراكز العمل ؟

ان ٤٩ بالمئـــة منهم موجود في بيروت وضواحيها والباقون موزعون على امتداد المحافظات الاربـع الباقية . ومن حيث المراكز فان ٦٠ ٪ منهم أجراء وثلث هؤلاء أجراء مياومون ،ويلاحظ أن العاملين المستقلين يكثرون في القطاع التجاري وفي القطاع الزراعي حيث تهتم العائلات بالاراضي التي تملكها ، وتبلغ نسبتهم ٢٤ بالمئة ويشكل أصحاب الاعمال ٧،٣ ٪ .

من الارقـــام الاكثر اثارة كذلك ما يشير الى المستوى التعليمي للعاملين المقيمين: فان ٢٩،٤ ٪ غير متعلمين بتاتاً و٥٠،٥ لم يتجاوزوا المرحلة الابتدائية . أما نسبة الثانويين فتبلغ ١٥،٨ ٪ ولا تتعدى نسبـــة الجامعيين ٤،٣ ٪ . ومن البديهي أن مستوى الانتاجية العام يرتفع بارتفاع مستوى التعليم كما أن التطور

الاقتصادي الذي يرافقه عامة تعقيد في أساليب الانتاج يتطلب نوعيـــة من العاملين يكون في استطاعتها الإلمام بالاساليب المعقدة ، وهذا أمر تشتد الحاجة اليه يوماً بعد يوم .

أما اذا تتبّعنا مستوى التعلم حسب القطاعات الاقتصادية فاننا نحصل على أرقام خيالية ، فان ٩٣٫٣ بالمئة من المزارعين من دون تعليم أو مستواهم دون الابتدائي وتنخفض النسبـــة الى ٧٧٫٣ ٪ للعمال غير المزارعين والى ٧٦٫٤ ٪ للعمال الذين يشتغلون في حقل الخدمات . وبطبيعة الحال فان الشهادات الجامعية لا تكثر الا لدى أصحاب المهن التقنية والحرة من محامين وأطباء ومهندســين الذين يشكلون ٩٫٨ ٪ من المجموع ، يضاف الى ذلك أن نسبة النساء بين المديرين وفي الملاكات العليا ضئيلة جداً تبلغ حوالى ٢٫١ ٪ وهي ترتفع اذا ذهبنا نحـــو العمال في الخدمات أو الزراعة أو المهن الحرة .

تبقى النقطة السوداء التي تعمل كل الدول المتقدمة على ازالتها : البطـــالة . تقول احصاءات وزارة التصميم انها تبلغ ٨٫١ ٪ اذا أخذنا بعين الاعتبار فئـــة الداخلين الى سوق العمل لاول مرة مع فئة العاطلين موسمياً أو بصورة مؤقتة بالاضافة الى الذين يبحثون عن عمل ، أما نسبة العاملين من الفئة الاخيرة فقـط فانها تبلغ ٣٫١ ٪ وهي في حدها الاعلى في الضواحي ٣٫٩١ ٪ وفي حدها الادنى في الريف ٢٫٣ ٪ . وتبلغ ذروتها أي ٦ ٪ لدى من هم في المستوى التكميلي ، ثم تهبط الى ٣٫٢ ٪ عند الطلاب الجامعين حتى تصبـح ١ ٪ فقط لدى العامليـن الامين . وهذه النسب لا تبدو كبيرة جداً الا اذا كانت المسافة بينها وبـين الواقع مثل المسافة بين أرقام وزارة التصميم عن نسبة ارتفاع الاسعار ونسبـة الارتفاع الفعلية .

نستخرج من هذه المعلومات الحقائق التالية الرئيسية في صورة المجتمع اللبناني:

أولاً : ازدياد الاتجاه في النزاعات الاجتماعية نحو الناحية السياسية والاقتصادية بازدياد الهوة بين الفئات الميسورة والمعدمة واتخاذ طابـع الصراع الطبقي ، رغم المحاولات القوية لاغراقه في بعض المناسبات بصراعات تمحـور حولها الانتماءات القديمة الطائفية والعائلية والمحلية .

ثانياً : نمو الاقتصاد اللبناني في اتجاه وحيد الجانب : انتاج الخدمات ، على حساب القطاعات الاخرى وبالسيطرة عليها . لهذا النمو نتائج مهمة على الصعيدين السياسي والايديولوجي . فمن الناحيـة الأولى تتوثق العلاقات بين المستفيدين من هذا القطاع والفئات الاجنبية التي يتعاملون معها : أي المصدرون في أوروبة وأميركا ، والمستوردون في البلدان العربية بالنسبة للسلع ، وبالعكس بالنسبة

للمواد الاولية وعلى رأسها البترول ، بالاضافة الى أصحاب رؤوس الاموال المودعة في المصارف اللبنانية . وهذا الارتباط ليس اتفاقياً أو متكافئاً ، فالوسيط أو الطفيلي الذي يعيش على فتات الانتاج والاستهلاك العاملين كلاهما في الخارج ، هو خاضع اقتصادياً وسياسياً لمواقفهما من ناحية ولعلاقاتهما من ناحية أخرى ، وبكلمة فان السياسة العامة لا تنبع بالضرورة عن المصالح المستقلة للشعب بل عن مصالح ومزاج الفئات التي يُتعامل معها والموجودة في الخارج .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان مجموع الافكار والقيم السائدة التي تبثها الفئة المهيمنة على الاقتصاد هي الافكار والقيم التي تؤدي بالضرورة الى تكوين نماذج تدخل النظام الاجتماعي القائم بسهولة وتعتبر السياسة العامة المتبعة حقيقة بديهية ، ومن «الشرعي» موالاة أو معارضة بعض التصرفات او الخطط الجزئية فقط . ويتم ذلك بمنطق سائد بثته الفئة المهيمنة : كالصراع بين الافراد والسعي نحو الربح والسلطة والركض نحو الرفاهية الفردية بأي ثمن والتعامل مع الشيطان للوصول الى المآرب الخاصة والتمثل بالنماذج الاجنبية كما تظهر لنا على شاشة التلفزيون وفي الجريدة والراديو والدعايات والنشرات والمجلات المتعددة الاصناف والاشكال . والمستهلك الذي يعتقد نفسه أنه ملك لم يعد الا عبداً للمنتوجات الاستهلاكية المعممة بالدعاية الذكية .

وليست التربية بعيدة عن عملية البث هذه ، فهي بمناهجها وتنظيمها خاضعة لمنطق الايديولوجية السائدة ، وقد تكون أنجح وسيلة لاعداد النماذج المطلوبة لدولة اقتصادها وسيط وسياستها وسيطة ، رغم أن الهدف «المرسوم» بمرسوم انما هو « اعداد المواطن الصالح ».

هذا المجتمع ، أي مواطن يربي ، وكيف ، والى أين ؟

لننتقل الآن الى دراسة وضع التربية من وجهة نظر المواطن اللبناني ، الذي حاولنا تحليل وضعه ، تركيبه ومحتواه .

من البديهي التذكير بأن تربية سليمة يجب أن تقوم على دعامتين: الديموقراطية والوطنية . والديموقراطية تعني باختصار توفير **جميع** الفرص **لجميع** اللبنانيين لتنمية واستخدام **جميع** طاقاتهم حتى الحد الأقصى . والوطنية تعني تربية جميع المواطنين في إطار واحد من الانتماء القومي .

واقع التعليم في لبنان

يتم التعليم في الاتحاد السوفياتي بـ ٦٦ لغة ، لكنه تعليم واحد ، ولا أثر لأية مدرسة خاصة على الاطلاق . أما في لبنان فتتواجد ثلاثة أنواع من المدارس : المدارس الخاصة الوطنية والمدارس الاجنبية ، والمدارس الرسمية . ويقال إن

الدولة تشرف على المدارس الخاصة بواسطة مفتشين يقومون بزيارات دورية سنوية يلفها طابع المحبة والتسامح .

ماذا يحدث في هذه المدارس ؟ تستحوذ المدارس المجانية على القسم الأكبر من طلاب المدارس الخاصة . أما الوضع التعليمي فيها فغني عن البيان ويكفي القول أن حوالى ٦٠ ٪ من حاملي شهاداتها الابتدائية يرسبون فوراً في السنة الأولى المتوسطة ويتساقط الباقون على « درب العلى » قبل نيل شهادة البكالوريا . أما غير المجانية ، فهي في معظمها طائفية تتقاضى أجوراً عالية تصل الى ٢٠٠٠ ليرة في السنة (في المرحلة الثانوية) والمدارس الأجنبية أقل عدداً من السابقات وهي متمركزة في بيروت وضواحيها ، وهي عادة باهظة الأقساط .

الظاهرة الأولى اذن في وجود مؤسسات التعليم هو تعددها وهذا التعدد يدل على تعدد التيارات الايديولوجية في نظام التعليم في لبنان . فالمؤسسات الأجنبية أنشأتها بعض الدول إبان السيطرة الاستعمارية في المنطقة وأهمها الأميركية والفرنسية ، والذين يدرسون في ثانوية انكليزية أو المانية أو ايطالية مضطرون لمتابعة دراستهم العالية في ايطاليا او المانيا . وهكذا اكتسبت هذه المؤسسات حق تكوين الوعي الاجتماعي عند النشء اللبناني وصهره من الحضانة الى الجامعة ،أي من الطفولة الى الرجولة في بوتقة الايديولوجية الاجنبية ، اذا لم نقل الاستعمارية .

والصراع القائم بين ما يسمى الثقافة الفرنسية والثقافة الاميركية ليس الا انعكاساً بين دول العالم الحر للسيطرة والنفوذ الاقتصادي والسياسي . ويبدو أن التيار الاميركي هو الغالب تدريجياً في نظام التعليم اللبناني .

أما المؤسسات المجانية أو التجارية المتكاثرة في بيروت والمدن الكبرى ، فهي عاجزة تماماً عن تأهيل الاجيال الصاعدة، ونسبة نجاح طلابها في الامتحانات الرسمية لا تتجاوز ١٠ بالمئة . معنى هذا أن الاغلبية من الذين حرموا من التعليم، فملأوا المؤسسات التجارية تظل في الحقيقة محرومة منه ، برغم توهمها الحصول عليه . ان وجود هذه المؤسسات يسهم في اخفاء حقيقة طبقية مفادها أن التعليم محصور في فئة اجتماعية دون غيرها . ومن الخطأ الفادح اعتبار النوع الثاني من المدارس الخاصة مؤسسات وطنية مئة بالمئة ، فهي في الحقيقة مؤسسات طائفية تابعة ، بشكل عام ، للمؤسسات الاستعمارية ، سواء على الصعيد المادي أو الايديولوجي . فهي مرتبطة بالمساعدات المالية وغير المالية التي تتلقاها من الدول الاخرى . ولا يمكن تبرير هذه المساعدات الا بطبيعة الدور الذي تقوم به هذه المؤسسات في خدمة الآراء السياسية الدينية والاجتماعية المطلوبة بشكل مباشر وصريح . وهي من ناحية أخرى مراكز انتاج ، أو بالاحرى أجهزة انتاج ان صح القول ، للتركيب الاجتماعي المتخلف المبني على الطائفية والعشائرية .

ولا بد أن يؤدي انتشار المدرسة الرسمية الى تقلّص المؤسسات الخاصة . ولكن هذا لا يحدث الا برفع مستوى هذه المدرسة وتزويدها بالكفاءات وهذا أمر لم تثبت النية عليه نهائياً ولم يخطط له ، ولم يحصل أي تطوير الا بضغط لاصحاب العلاقة أو بشكل بطيء . ويجب التذكير بالحقائق التالية حول واقع المؤسسات الآنفة الذكر ومقدار ما تقدمه من خدمات تعليمية :

١ – ان المدارس الخاصة ، وبالضبط الاجنبية منها ، لا تقدم جميع طلابها الى الشهادات ما قبل البكالوريا ، على اعتبار ان المتقدم الى امتحانات البكالوريا لا يحتاج بالضرورة الى شهادتي البريفيه والابتدائية . وهذا يعني أن المناهج المعمول بها من حيث محتواها ونسقها قد تكون مختلفة الى حد بعيد او قريب عن المناهج الموضوعة من قبل وزارة التربية ، وبالتالي يمكن تتبع مميزات خاصة لكل شخصية تكوّنها احدى أنواع المدارس الثلاثة المذكورة أعلاه .

٢ – ان الخدمات التعليمية غير متعادلة [٢] فابن المدينة لديه فرصة لدخول مدرسة خاصة أكثر من ابن الريف بثلاث مرات . ومن المعروف ان المدارس الابتدائية في الريف تمتص ٦٠ الى ٦٥ ٪ من شبانه ، مقابل ٩٠ ٪ لما يحصل في بيروت وجبل لبنان . واذا أردنا وضع لائحة بنسب الاستقبال لدى أنواع المدارس الثلاثة وبالمقابلة بين بيروت والجنوب نلاحظ ان المدرسة الرسمية تستقبل في بيروت ١٩ بالمئة من الطلاب ، والخاصة تستقبل ٥٨ ٪ منهم ويبقى ٢٣ ٪ خارج المدرسة . في حين ان المدرسة الرسمية في الجنوب تستقبل ٤٧ ٪ من الذين في سن الدراسة و١٩ ٪ منهم تستقبلهم المدارس الخاصة ويبقى الثلث الباقي (٣٤ ٪) خارج المدرسة . فضلاً عن أن بنات الجنوب أقل تعليماً من قريناتهن في العاصمة (٤٦ بالمئة منهن خارج المدرسة) .

أن يتعلم أكثر من نصف أبناء بيروت في مدارس خاصة وحوالى نصف أبناء الجنوب في مدرسة رسمية ، وأن يبقى الربع هناك والثلث هنا دون تعليم ، فذلك لا يعني بان التعليم في لبنان في صحة جيدة ، ولا ندري انه لو حصلت مصادفة والتقى ثلاثة شبان من هذه الفئات الثلاثة في مكان ما ان كانوا يتفقون على شيء ، أو سيعرفون انهم من بلد واحد !

٣ – ان امكانية الاختيار بين عدة فروع للتعليم غير متوفرة ، فمنهاج البكالوريا والجامعة اللبنانية مقسومان الى فرعين : آداب وعلوم كلاهما نظري ، لا يصلح المتخرج منها الا للكتابة والتحرير والتعليم !

٤ – ان اختيار او الدخول الى نوع معيّن من المدارس في المرحلة الابتدائية يؤدي الى البقاء في معظم الأحيان في هذا النوع خصوصاً في المدارس الاجنبية و٧٩ بالمئة مثلاً ، من طلاب مدرسة الآداب العليا الفرنسية تابعوا دروسهم في مدرسة خاصة اجنبية و١٨ بالمئة في مدرسة خاصة و٢،٣ فقط في مدرسة رسمية .

٥ – ان مشاركة القطاعات المختلفة في التعليم متباينة . فما زالت المدارس الخاصة متفوقة في عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية لديها . وثلث المتقدمين الى امتحانات البكالوريا درسوا على أنفسهم وثلث آخر تقدمه المدرسة الخاصة غير الاجنبية ، ونصف الثلث الباقي تقدمه المدرسة الرسمية .

ويحصل انتقال ملحوظ من المدرسة الخاصة الى الرسمية على صعيد صف الفلسفة، ويبقى « المنتسبون » دائماً في الطليعة .

٦ – ان النجاح في الامتحانات – السدود يعطي صورة واضحة خاضعة للنقاش ، عن مستوى الطالب والتعليم الذي حصّله . ففي سنة ١٩٦٦ كان الفارق بسيطاً بين نسبة الناجحين في الامتحانات الابتدائية بين المدارس العامة والخاصة ثم ارتفع لصالح المدرسة الرسمية في امتحانات الشهادة المتوسطة وعادت المدارس الاجنبية فتفوقت في امتحانات البكالوريا ، اذ بلغت نسبة النجاح لديها ٣٠،١ بالمئة ، في حين كانت ١٣،٤ بالمئة من طلاب المدرسة الرسمية .

٧ – هناك علاقة وثيقة بين المستوى الاجتماعي الاقتصادي وامكانية اختيار المدرسة ، فان ٣٢ بالمئة من طلاب المدرسة الرسمية هم ابناء الفئات الشعبية و٦٦ بالمئة من الفئات المتوسطة و٢ بالمئة من الفئة الميسورة . أما طلاب المدارس الخاصة فربعهم من أبناء الطبقة الميسورة و٦٢ بالمئة منهم من الطبقة المتوسطة ، ويبقى ١٣ بالمئة للفئات الشعبية. أما في المدارس الأجنبية فالارقام بارزة : ٥٠ بالمئة من الميسورين و٤٠ بالمئة من ابناء متوسطي الحال .

هكذا يبدو ان ملجأ الفئات الشعبية هو المدرسة الرسمية أو المجانية ولا مناص من الخضوع لظروف هذه المدرسة من مناهج وامتحانات وفرص ضيقة . أما المدارس الخاصة والاجنبية فانها تربي أبناء الفئات الميسورة، بطريقة أخرى، وباختيارات مهنية اوسع وبكلفة أرفع . وهكذا يمكن القول إنه اذا كانت كلمة تربية تستعمل عادة بصيغة المفرد ، فانه يمكننا التساؤل ثم التأكيد بأنها يمكن ان تستعمل في لبنان بصيغة الجمع ،نظراً لما يسود التعليم من تعدد وتبعثر وتفاوت في المحتوى والتقويمات . ويبدو كذلك أن العامل الاجتماعي الاقتصادي هو المحدد الأول لاختيار هذا النوع من المدرسة أو ذاك ، او للبقاء خارجها ، مما يؤدي الى تكوين هذا النموذج من اللبناني أو ذاك .

لنحاول الآن ان نستعرض نتائج دراسة أجريت على مجموعة من طلاب الجامعة اللبنانية (٣) للاطلاع على العوامل والظروف التي أوصلتهم الى هذا المستوى من التعليم :

أولاً : ان للمنشأ الجغرافي علاقة وأثراً مهمين : فان ٣٠ بالمئة من الطلاب هم من بيروت و٢٦ بالمئة من جبل لبنان و١١ بالمئة من الجنوب . وقد لا يكون هذا التفاوت جغرافياً بالمعنى السطحي فقط ،فالجغرافية (البشرية خصوصاً) لها وجه تاريخي ، والتاريخ يقع في الجغرافيا اذا صح التعبير .

ثانياً : حوالى ثلث هؤلاء الطلاب درسوا في مدرسة رسميــــة و٣٧ بالمئة في مدرسة خاصة ، و٢٧ بالمئة في مدرسة أجنبية .

ثالثاً : من ناحية العمل : ٣٩ بالمئة منهم يعملون ، و٣٧ بالمئة لا يعملون والباقون يعملون موسمياً .

رابعاً : من حيث مهن الآباء : ٦٠٫٦ بالمئة من هؤلاء الطلاب يعمل آباؤهم في وظائف متوسطة ، و١٣٫٩ بالمئة من أبناء فئة الأجراء والعمال وأمثالهم ، و٧٫٢ بالمئة من أبناء العجزة والعاطلين ، و١٨٫٣ بالمئة من أبناء العاملين في مراكز عالية .

خامساً : المستوى العام : ٢٢ بالمئة من بيئة شعبية ، و١٨ بالمئة من بيئـــة ميسورة و٦٠ بالمئة من بيئة متوسطة .

وعندما سئل الطلاب عن سبب اختيارهم للجامعة اللبنانية دون غيرهـا ، أجاب ٣٠ بالمئة فقط : لاسباب تعليمية ، و٦٨ بالمئة اختاروها لاسباب اقتصادية (٤١٫٥ بالمئة لانها أرخص ، ١٩ بالمئة : تسمح بالانتساب ، ٧٫٥ بالمئة تسمح بالترقي) .

اذن ، للأكثرية الساحقة من الشعب اللبناني خمس المراكز على مقاعد الجامعة اللبنانية ، والطبقـــة المتوسطة تأخذ أكثر من حصتها ، والميسورون ، القلة ، يأخذون مراكز تعـــادل مراكز أبناء الطبقة الفقيرة ، مع أنهم يحتلون جميـع المراكز في الجامعات الفرنسية والاميركية .

لعلنا استطعنا في هذا العرض للتعدد التعليمي والعوامل التي تحكم الانخراط فيه ان نلقي الضوء على بنية التعليم في لبنان ، من بعض الوجوه . يبقى علينا ان نتحدث عن مقدار ما يحصل عليه المواطنون من هذا التعليم ، او بكلمة اخرى مدى استيعاب المدرسة لابناء لبنان ومدى توفر الأمية ومقدار التساقط على ادراج السلم التعليمي . ولا بد من الاشارة الى مادة هذا التعليم : المناهج ، حيث تكتمل حلقات السيطرة .

ان النسبة الاجمالية لمجموع التلامذة الطلاب الذي يتابعون الدراسة تبلــغ ٣٣٫٦ ٪ من مجموع الشعب اللبناني . وهذا يفسر بسبب ما سميناه ظاهرة الفتوّة . والوجود في المدرسة لا يعني بالضرورة وجوداً في الصف المناسب . فمثـلاً تبلغ نسبة الموجودين في المدرسة بين سن ١٩ و٢٤ حوالى ٢٨ ٪ من المجموع . الا أن نصف هؤلاء فقط (بالضبط ١٤٫٦) موجودون في المدرسة التي تناسب سنهم . ولنأخذ نموذجاً آخر بين الذين تبلغ أعمارهم من ١٢ الى ١٥ سنـة أي ما يوازي الدراسة التكميلية : نجد ان ١٨٫٥ ٪ منهم غير موجودين في المدرسة ، على ان الباقين ليسوا بالضرورة في صفوف المرحلة التكميلية ، و ٣١٫٤ ٪ منهم ما زالوا في المرحلة الابتدائية و٣٫٢ بالمئة تجاوزوها الى الثانوية . هذا عن الصبيان اما البنات فيعانين من اجحاف أكبر ، اذ ان ٣٣٫٦ ٪ منهن خارج المدرسة و٢٧٫٧ بالمئة من الباقين في المرحلة الابتدائية .

النقطة الثانية في مقدار ما يحصل عليه المواطنون من التعليم هي نسبة الأمية. لقد تبين ان ٢١،٥ بالمئة من الرجال و٤٢،١ بالمئة من النساء لم يدخلوا المدرسة بتاتاً أي ما معدّله ٣١ بالمئة من اللبنانيين ، وهي كما يبدو النسبة الاقل بين دول المنطقة . وتنخفض نسبة الأمية تحت العشر سنوات وفي المدينة وعند الرجال وترتفع فوق الثلاثين وفي الريف ، حيث يصبح ثلثا النساء أميات ، و٩٠٪ منهن بعد سن الستين مقابل ٦٠ ٪ من الرجال في الوضعية نفسها .

من وجهة نظر المواطن ، اذن ، تقدم التربية الرسمية للبناني القليل القليل في بلد الاشعاع والنور حيث تقوم أقوى جامعات المنطقة بتصدير القياديين والكوادر العليا . وعلى كل حال فالذين سنحت لهم الفرصة الذهبية للتعلم والمتابعة ، لا يصلون الى نهاية سلم التعليم الرسمي الا بعد عناء ، فثلاثة أرباع طلاب الجامعة اللبنانية رسبوا سنة واحدة على الاقل ، وبلغ متوسط التأخر لدى مجموع الطلاب في الدراسة الآنفة الذكر سنة وستة أشهر ، (للذين نالوا البكالوريا القسم الثاني) . وأشهر الذين تأخروا في نيلها هم الطلاب الذين درسوا على أنفسهم ابان العمل او طلاب وخريجو دور المعلمين ، اذ انهوها في سن ٢١ وتسعة اشهر للفئة الاولى و٢٠ سنة للفئة الثانية . لو جمعنا كامل سنوات الرسوب لدى الطلاب الذين تابعوا دراستهم لحصلنا على نتائج مثيرة حول مقدار الهدر الاقتصادي والخسارة المادية للأفراد من ناحية وللمجتمع ككل من ناحية ثانية . وسبب هذا الهدر المدرسي عدم كفاءة المعلم ويباس المناهج وصعوبة الامتحانات . والفرد الذي تأخر سنة واحدة فقط قبل تخرّجه من الجامعة خسر كفرد مبلغاً حده الادنى تسعة آلاف ليرة ، بسبب هذا العام ، وخسر المجتمع انتاجاً يساوي هذا الثمن . ويحصل هدر آخر ، بسبب تجمد الهيكل التعليمي وعدم تنوعه بما يتناسب مع حاجات سوق الاستخدام ، مما يؤدي بالمتخرج الى البطالة . ولنترك لادمغة وزارة التربية الالكترونية حساب مجموع الهدر لمجموع الطلاب في الحالتين .

ان أولاء الذين يجدون أنفسهم بعد عناء طويل امام شبح البطالة ليسوا سوى ضحية عدم التخطيط الاقتصادي والتربوي ، والمجتمع الذي يحافظ على طاقات أبنائه وعلى ثرواته لا يمكن أن يفرط بالاموال الضخمة المصروفة على التعليم دون محاولة لافادة الافراد وتنمية الدخل القومي . وان تعليماً يعطي الشهادات ليقدسها ويزوّد طلابه بالمهارة التعبيرية والحسابية فقط ، كان يمكن أن يمر دون ضجة في مجتمع الخمسينات وبداية الستينات حيث احتاجت المؤسسات التجارية والمصرفية المتكاثرة بسرعة الى يد عاملة متعلمة ، أما وقد أشبعت هذه المؤسسات بالموظفين من كتبة ومحررين ومحاسبين ، وبعد ان توقف نموها بعد ان أصيبت بضربات عنيفة من الداخل والخارج ، فان هذه المؤسسات نفسها وغيرها مما ينشأ في قطاعي الصناعة والزراعة بالاضافة الى المهن الحرة تحتاج يوماً بعد يوم ـ ككل بلدان

العالم - الى الكفاءات المتخصصة وليس الى الثقافة العامة .

وما تخصيص ٢٥٠ مليون ليرة في الخطة السداسية لتنفق على التربية خلال ست سنوات سوى محاولة خجولة جداً ،لسد بعض الشقوق الكبيرةالتي أصبحت تهدد الهيكل التعليمي بالتضعضع .

بعد ان حللنا بسرعة البنية التحتية لازمة التربية في لبنان من خلال مظهر التعدد ، ثم قلة الخدمات التعليمية ، ومسألة بعد النظـــام التربوي عن حاجات المجتمع الاقتصادية وتطوره الحضاري في النصف الثاني من القرن العشرين ، تبيّن لنا أن التعدد هو من خصوصيات التربية في لبنان ، والظواهر الباقية يشتركفيها مع جميـع بلدان العالم الثالث ، وجميـع بلدان العالم الرأسمالي الحر يبقى لدينا نقطة أخيرة تكـمّل صورة التربية في انعكاسها بطريقة جدلية عن صورة المجتمع اللبناني الذي استعرضنا بنيانهوايديولوجيته في مقدمة الكلام . هذا الجزءالاخير من مسلسل النظام التربوي المتأزم هو قضية المناهج . ولن نطيل الحديث هنا ، بل يكفينا التذكير بأصول وضع المناهج ثم تحليل نموذج او اثنـين لنتعرف الى واقع التعليم من الناحيتين التشريعية والتنفيذية .

في ذهن واضعي المناهج عندنا صورةمبتسرة عن المنهج ، اذ يعتبرونه - عن قصد أو جهل - مجموعة من المواد والعناوين التي يجب ان يطلع عليها التلميذ حتى يستطيـع الترقي من صف الى آخر . ويكون تنفيذ ذلك عملياً بأن يطلع المعـلم على محتوى المواد ويعمل جهده على سكب المعلومات وتثبيتها ما أمكن في ذهن التلميذ ، مطبقاً المثل القائل: «متل ما بتحط بالدست بتشيل بالمغرفة »افتراضاً منه أن التعليم هو انتقال المعلومات من ذهن المعلم او من الكتاب الى ذهنالتلميذ بطريقة التلقين ، وما الامتحان سوى عملية رصد لمقدار ما احتفظ به مخزن الذاكرة . وقد يكون هناك من يعلم بأن المنهج هو مخطط النشاطات والاعمالالتي يقوم بها التلميذ لينمو ويتعرّف ويتقن المهارات اللازمة . لكن الابقاء على الوضع الحاليله دلالة اجتماعية.فالاكتفاء بالتلقين يخرج نماذج من البشر سلبية ،متخوفة، تابعة ، مسطحة ، تنقصها الحذاقة والتفكير العلمي وحسن التصرف . ان تخريج مكتبات متنقلةمن الثانويات والجامعات تقف مكتوفة الايدي لدى اولمشكلة تتعرض لها في الحياة اليومية،لهو أمر يفيد ، في النهاية ، فئات معينة فيالمجتمع من مصلحتها ان لا ترى الأجيال الجديدة من الاشياء الا ما يمكن اعطاؤه اياها مباشرة . أضف الى ذلك ان طريقة تنفيذ المنهج - الخالية من البحث والفعالية من قبل الطالب - تؤدي الى تكوين نماذج سلبية من الناس : تلتقـط ، تفهم ، تحفظ قدر الامكان . أما التعديل والتغيير والابداع والاعتراض فأمـور غريبة عن مدارسنا الرسمية .

ومن حيث المحتوى هذه بعض الامثلة : يدرس الطالب الثانوي اقتصاديات

الوطن العربي بشكل منفصل، مع انه يدرس علاقة الاقتصاد اللبناني بدول حوض البحر الابيض المتوسط . ويدرس تطور اقتصاد العالم ومشاكله ولا يدرس من الاقتصاد اللبناني الا أرقاماً وعموميات . ونتائج ذلك في ذهن الطالب واضحة : لبنان منعزل عن الدول العربية ، وهو مرتبط بالدول الغربية وأفريقيا ، ولا يعاني من اية مشكلة واضحة تمكن دراستها . والطالب فوق ذلك يدرس مثلاً مشكلة الآلية الخاصة بالمجتمعات الصناعية المتطورة ، ولا يتعرض من قريب او بعيد لمشكلة التخلف والنمو التي يعيشها محيطه. وفي الادب العربي يستبعد المنهج اي شاعر او مفكّر، قديم أو حديث ارتبط أدبه بالتحرك الاجتماعي أو بالفئات المغلوبة.

ولا ننس طبعاً اللغة الأجنبية في التكوين والتصفية . وما تدريس العلوم باللغة الاجنبية (وكذلك الرياضيات) الا لفصل الطالب عن الواقع والرؤية العلمية له ، ودفعه الى الحفظ الببغائي للتعبير (أو التسميع) .

ان كل الوسائل وكل الاجهزة في يد السلطة وكل الظروف الاجتماعية والثقافية أنتجها تاريخ المجتمع لصالح الفئة المتسلطة ، وما عليها سوى ان تخترع أو تعدل وسائل سيطرتها والحفاظ على مواقعها . هذه الوسائل متنوعة ، كما ألمحنا في البداية ، ولكن أهمها السعي الى نشر نمط تفكيرها على الجمهور ، والمدرسة هي أفضل طريقة لهذا النشر . ويبدو التفوق العلمي والامكانات المادية ، والمكانة الاجتماعية والسيطرة على آلة الدولة من دعائم التسلط المقنع بالشرعية ، لكن القائم على التدمير.

وما دامت المدرسة بيد السلطة فلن تكون وسيلة تغيير مباشرة ، الا لصالحها ، لكنها وسيلة غير مباشرة لخلق نواة ، خارج المدرسة ، تصمّم نمطاً آخر من الافكار وأسلوباً مختلفاً في الانتاج والحياة اليومية ، ولن يعيش هذا النمط الا بتدمير النمط السابق ، المسيطر ، شيئاً فشيئاً حتى تتوفر الظروف المادية لتدمير عنفي لآلة السيطرة : الدولة .

كيف نتصور البنية الاخرى للتعليم، بالمعنى الذي يحقق اغراض الجمهور الحقيقية ، المرتبطة بمصالحه وبمستقبله ، بالتناقض مع البنية الحالية المرتبطة بمصالح الفئة المسيطرة ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه في مقالة لاحقة .

بشير الامين

المراجع

١) *Ministère de planification. La population active au Liban. 1972*

٢) *Valin. F. Le pluralisme socio - scolaire au Liban. Beyrouth, publication du centre culturel universitaire. 1969*

٣) *Bustani . H. Population de l'unuversité Libanaise. 1967*

٤) عامل ، مهدي . النظام التعليمي في لبنان . الطريق، عدد ١٠-١١، ت١-ت٢-١٩٧٠.

٥) مجلة رجال الاعمال . عدد ٧٢، شباط ١٩٧٢ .لعبة المليارات والخطة السداسية. ص ٣٣.

شهادات

فواز تركي

« يا فلسطيني ، يا نذل ... »

I

هب نسيم خافت بينما كنا نسير ببطء طوال طريق البحر نحو الحدود اللبنانية . كان الجمع مؤلفا من امي وابي واختي واخي وانا . تركنا حيفا وراءنا ، حيفا ، المدينة التي طالت فيها مشاهد التفجيرات الدموية ، لعلعة الرصاص والكمائن والغارات والقتال المر بين الفلسطينيين والصهاينة . باتت حيفا وراءنا ، وامامنا الان لاحت صيدا والمنفى الذي لا حدود له . حولنا كانت مياه البحر المتوسط تتلألأ في الشمس ، ومن فوقنا سارت الازلية بلا اكتراث ، كأنما ابتسم الرب في جنته من مشاهدة آلام البشر الذين ساروا على عكازاتهم . لقد تفرقع عالمنا كما تتفرقع الفقاعة ، فقاعة غمرتنا بدفئها . ومنذ تلك الساعة لم اعرف غير الحزن العظيم ، ولم ار سوى اعين زجاجية مثقلة بالضياع والحرقة والالم في محاجر اخوتي الفلسطينيين .

نيسان .. كان نيسان عام ١٩٤٨ اقسى اشهر السنة .. ثم تبعته شهور اكثر قسوة ، وهكذا تلتها السنون .

II

يحصر ابا ايبان الفلسطيني بين هلالين في كتابه « شعبي » ، اما

جولدا مائير فقد تساءلت علنيا : « الفلسطينيون ؟ من هم هؤلاء ؟ انهم غير موجودين » . وكنا نحن « هؤلاء » نصب كالانهر في لبنان وسورية ، في الاردن ، حاملين اخبار الذعر والتعذيب والخوف . نمشي كأننا في غيبوبة، كان الواحد منا يجابه الاخر بقائمة من الوقائع المذهلة . ومع ذلك كنا على استعداد للانتظار بضعة اسابيع ، بل بضعة شهور الى ان يحين الوقت لنعود الى بلدتنا ، الى بيوتنا وحوانيتنا ، واعمالنا .

تدريجيا ، وبعد ان وجد الفلسطينيون انفسهم ضيوفا غير مرغوب فيهم في بلاد طالما عانت من كساد اقتصادها ، وان مدت دولة يد المساعدة لاستيعاب هذا الفيض الفلسطيني فعلى مضض . وبعد ذلك اذعن الفلسطينيون للوقوف كل شهر امام مستودعات اغذية الاونروا التي فتحت ابوابها لهم . في المراحل الاولى من التشرد اكتشف الكثير من اللاجئين انهم ينجذبون بلا حول نحو الحياة في المخيمات التي لم يألفوها . فالجوع كما يعرفه الذين جاعوا وعانوه ، يمحو كبرياء الانسان ، وعندها لا يتبقى غير البحث عن الطعام كل يوم ، وعن الثياب الدافئة وسد الحاجة لدى قدوم مولود جديد ، تتخلخل الكبرياء مثلما تخلخل نسيج كياننا بفعل استواء الفقر سيدا .

III

بعد ان رمدنا الجوع والخيبة والحياة المبهمة طوال اشهر من لجوئنا الى صيدا ، قررت عائلتنا الانتقال من جديد هذه المرة الى مخيم في بيروت، غير اننا هناك التقينا بعائلات اخرى تساوينا تشردا وحيرة . وجدنا في مخيم بيروت عائلات مثل عائلتنا ، يعوزها الطعام ونفقات تربية الاطفال وما يدفع البرد .

في السنين التي تلت ، وبعد ان تركنا المخيم وعثرنا على مسكن احسن وحياة افضل واقتربنا من عشرينياتنا ، كنا نتذمر احيانا من نقص بعض الضروريات ، وكانت امنا تقول : « اشكر ربك يا ولد . فكر في اولئك الذين ما يزالون في المخيمات . فكر بهم جيدا وتوقف عند حد طلباتك . » . وكنا نفكر « باولئك الذين سكنوا المخيمات » عند رؤيتنا للمطر ووميض البرق وقصفه من الشباك ، وكنا نفهم ما يعني ذلك .

الانسان يتكيف حسب بيئته ، ونحن تكيفنا خلال الاشهر الاولى حسب الحياة في مخيم اللاجئين . وفي تكيفنا هذا تقلصنا الى حجمنا الانساني كرجال ونساء واطفال . وكنا احيانا نطلب احلاما بحجم تقلصنا ، احلاما مشوهة الطموح . تمنينا مرة لو تمكن ابوانا من شراء سريرين ، واحد لي والاخر لاختي ، علنا ندرأ عنا داء الربو الذي تسلل الينا من جراء النوم

على بطانيات فوق الارض الباردة • في يوم اخر تمنينا لو كان لدى ابوينا ما يكفي لشراء تفاح واجاص ، لكنا تخاصمنا ، كما كنا نفعل في السابق ، من اجل نصيب اكثر او اقل على فاكهة او جبن ، وتمنينا اختصار الشهر ليحين موعد توزيع المؤن فيكون لدينا الكفاية من الاكل لاسبوع كامل • كنا نتجادل كيف سنعود الى بلدنا ذات يوم •

كان شيوخنا يتفيأون سقف مقهى مجاور ويبحثون « مشكلتنا » ، وكان يروي الواحد للاخر قصص الشهداء الذين سقطوا في معاركهم ضد الاتراك ومن ثم الانكليز فالصهاينة ، وابو سليم شاعر حيفا المعروف ، كان يجلس بين الرجال ويلقي قصائد عن فلسطين ، يرتجلها بفعل كأس او كأسين من العـــرق •

كان شاعرنا ينزل السبيل عند العصر يلحقه حشد من الصبية ليقدموا له التحية ، وليجلس بعدها على طاولته المفضلة في انتظار ارجيلته ، بينما يتحلق حوله الرجال الآتون من المقاهي المجاورة بعد وقت قليل من وصوله• خلال حديث الاخرين كان ابو سليم يلزم الصمت ويكتفي بالتدخين والشراب، وعندما ينفد ما في جعبتهم من الحديث ويلتهون بوضع الجمر فــوق تبغ النراجيل ـ يتفتح هو، ويتلو لساعات متأخرة شعره بين استحسانهم المخفور بـ « يا ليل ، يا عين » وبين طنطنة الفراش حول القناديل • في مثل هـــذه الامسيات ذات الطابع الفلسطيني كنا ندرك اننا اقتلعنا من قرية كانت ذات يوم على طريق يافا، كانت ذات يوم شمال حيفا ، كانت ذات يوم قريبة من اللـــه •

وبالرغم من صفة « الحاقد » التي اكتسبناها في العالم الغربي كنا ندبك ونرقص ونعزف وتتابع النساء بيننا تطريز اثوابهن ، وكـــان الذين يجيئون الينا من خارج المخيم (عدا السواح باذيال عطفهم وكاميراتهم ، وحملة شهادات علم الاجتماع بلوائح احصاءاتهم ومناهجهم) يرون خرقنا البالية معلقة على اجسامنا كأنها اعلام بيضاء • ثمة احاسيس تنمو ، مثلا، بين احشائنا لم يعرفوها • ولم يعرفوا شعورنا الحزين بالتطلع الــى نجمة وحيدة في سماء الفجر •

في الشتاء كان الاطفال يلعبون في الـوحل وفـي الصيف بالـرمل والغبـار • وبينمـا كانت « مشكلتنا » تبحث في قاعات هيئة الامم ، كانت الفراشات تنتحر فوق زجاج قناديلنا • في هذه الاثناء حصلت على عمل في معمل للكبريت غير بعيد عن المخيم ، وقد عملت فيه ستة اشهر • كنت احس بالفخر لشعوري بانني اساعد اهل البيت في تحصيل العيش ، وبات مـن حقي المطالبة بملعقة سكر اضافية في كأس الشاي الخاص بي ، والحصول على مصروف انفقه في شراء مجلات الاطفال المصورة ، واحيانا برتقالة • بدأت بالفعل في تجميع بعض الدراهم لشراء سرير لي غير اني طردت مـن عملي قبل تحقيق ذلك •

في المعمل كان صبي يدعوني « يا فلسطيني •• يا نذل » •• وتعاركنا يوما ، فجاء الناظر ذو ثنيات الشحم الثلاث تحت ذقنه الطويلة وصفعنـي مقررا انني البادىء ، وانقص ثلاث ليرات من اجرتي الاسبوعية التي بلغت سبع ليرات ، ودفع ما تبقى لي وهو يدعوني « يا فلسطيني ، يا نذل » ويشير الى لون شعري الاشقر هاتفا لا بد ان تكون امي عاهرة ليكون لي مثل هذا

الشعر ، ثم دفعني خارج الباب · مضيت الى النهر لاتناول وجبة الغداء على العشب ، وكانت رنة « يا فلسطيني ، يا نذل » اكثر حرقة في نفسي من مأزق فقدان عملي · في البيت وحول المخيم تعلمنا دون وعـي ان نعتـز بكوننا فلسطينيين · هذا الاسم الذي كان مكروها في الخارج ، كان في داخل المخيم كل ما نملك : هويتنا التي تشبثنا بها بشيء من الفخر ·· فمثلا كان والدنا لكي يردعنا عن الاساءة حين نرتكبها يقول : « انت فلسطيني يا ولد » وكأنما يعني ان الفلسطيني اكبر من ان ياتي منكرا · وحينما يتفق ان نجيء بشيء من اللهجة اللبنانية الى البيت كانت والدتنا تتساءل : « ما بك يا ولد ، ألا تروق لك لهجتنا ؟ اصرت اكبر شانا ؟ اتريد ان يضحك الناس عليك في حيفا عندما تعود اليها بلهجتك الغريبة هذه ؟ » ·

فيما اجلس على ضفة النهر كنت افور غيظا ، واصر على العودة الى المعمل لا لاتعارك مع الصبي ، بل لاتعارك مع الناظر نفسه ·· عدت ووقفت خارج مكتبه في الطابق الارضي ذي النافذة الواسعة المطلة على الشارع ، حملت حجرا وناديته للخروج :

– « اين انت يا لبناني يا نذل ·· اخرج برا يا مشحم » واصابتني نوبة الربو من توتري وسعلت ، ثم تساءلت ان كانت الساعة ملائمة للعراك ·· واعدت : « اخرج برا يا ابن العاهرة » ·

بعـد لحظة اطـل الناظر وهمهم ثم اختفى عندما لمح الحجـر مصوبا نحوه ·· لا بد انني كسرت تمثال القديس الكسي الذي علق على حائطه ، او بعض صور افراد عائلته · وبالرغم من انه كان يعرف مكان اقامتي فلـم يجرؤ على اللحاق بي ، فلو تجرأ لاستلمه اخي الكبير ورفاقه ، او اي شخص آخر وخاصة اذا عرف مقصده ، اذ لم يكن من السهـل على اللبناني تقليد اللهجة الفلسطينية ، كما لم يجرؤ احد على دخول المخيم من الغرباء عدا بعض افراد الشرطة الذين كثيرا ما جاءوا وهم سكارى ·

في تلك الامسية عندما سردت حادثة مصنع الكبريت سال ابو سليم والدي وهو يحك راسه من تحت شملته عن عمري ، وعندما عرف بلوغـي العاشرة رد بايجاز : « لا باس ، لا باس » ·

في الشهور الخمسة التي تقدمت فيما بعد بـدات نزهتي في الشوارع وبدات السرقة ودخول المشاجرات مع صبية مـن بعلبـك كانوا علـى بعد كيلومتر من المخيم ، وقد انضممت مع يوسف ابن ام يعقوب الـى زمرة « اولاد فلسطين » ·· وكنا شلة نلتقي على تلة الكرامات لمشاهدة مباريات كرة القدم ، ولخطف سلال الطعام من الكشك ، واتقنا السرقة ومارسناها بجراة ووقاحة ، حتى طعام الجالسين على العشب كنا ننسل به بهدوء قبل ان يشعر اصحابه ، وفي بعض الاحيان كان احدنا يتلقى الضرب الشديد من الشرطي ، قبـل ان تـدخل السلطات اللبنانية طور اللياقة في عمليات التوقيف والمحاكمة والسجن ، وذلك خلال الخمسينيات ·

وفي فصل الصيف قمت بعمليات مع يوسف في مسبح « سان سيمون » اعتبرناها نعمـة الصيف علينـا · كـان هذا المسبح خاصا لفئات الانكليز والامريكان والاوروبيين الدبلوماسيين ورجال الاعمال وممثلي شركات نفط الخليج ··· كنا نمضي سوية ، حيث ينتظرني خارج السيـاج واقوم انا بالسباحة حتى المنطقة الخاصة بـ « سان سيمون » لاعود بحوائج السابحين

في فترات نزولهم الى البحر ، وكان ما يساعدني لون شعري ، كنت الملم من تحت المظلات ما تقع عليه يدي وانا ارقب وجوههم واجسادهم اللماعة تتغازل في الماء ، ثم ارميها ليوسف من فوق السياج :

ـ « برافو عليك ، برافو » كان يردد يوسف .
ـ « يمكن ان اقوم بعملية او اثنتين مرة اخرى .. انتظرني » .
ـ « برافو عليك ، برافو يا خوي » .

كنا نرجع الى المخيم بالباص ، وننزوي في كوخ قرب مضخة المياه لنحصي غنائمنا : النقود ، الساعات ، علب الدخان ، الكتب ، آلات التصوير ، اقلام الحبر ، القداحات ، وعدد كبير من المناشف . كنا نبيع كل شيء عدا المناشف ، اذ كنا نوزعها . واذكر مرة انني وهبت صاحب المقهى منشفة طبعت عليها كلمات بالانكليزية ترجمها لي قائلا : انها من املاك حكومة المملكة المتحدة ، واضاف : قد تعني هذه الكلمات ان المنشفة ملك لسفارة المملكة المتحدة .. فانا لست متاكدا . ثم يضيف : هذه منشفة تعجبني . ثم يستخدمها كمئزر ، وكخرقة لمسح الطاولات بعد ان تبلى .

كنا نتوجه مع شلة « اولاد فلسطين » احيانا الى منطقة راس بيروت شمالي العاصمة حيث مساكن العائلات الثرية التي تجاري بازيائها وعاداتها الازياء والعادات الغربية ، واذا لم نظفر بشيء من الشوكولاته او المعلبات ننحدر وراء المنارة الى شاطىء البحر لنتجول او نسبح ومن ثم نستلقي في دائرة احاديث اليفة حول بعد الحدود الفلسطينية عنا ، حول اعمالنا هناك ، مدارسنا ، وعن فتيات المخيم .

ولم يمض الكثير من الوقت ليعلم والدي بنشاطي مع «اولاد فلسطين» فحدد لي منطقة حول المخيم منعت من الخروج منها . وفكرت من جديد بالعمل ، وهممت ان اكسب رزقي بوسيلة غير السرقة ، فابتعت بما لدي من نقود صندوقا من العلكة احتوى (٥٠٠) رزمة . واخذت في بيع بضاعتي متجولا في الكورنيش والبرج ، ومن ثم على بوابة الجامعة الامريكية في بيروت عندما اصبحت اكثر استقرارا . ولكي اتملص من شراء تذكرة الترامواي كل صباح في ذهابي الى راس بيروت ، كنت انزل في كل موقف على الخط ، وعندما اصل اباشر بيع العلكة للطلبة . وهناك عرفت كيف الاحق الزبون بالرغم من اعراضه المبدئي ، كنت الاحقه حتى ارهقه ليترك لي القروش الخمسة ، وبين الفينة والاخرى كان ثمة طلاب يغضبون وينتهرونني بقسوة ، ولكن هكذا كانت طبيعة عملي .

وهكذا بدأت احصل على اضعاف ما كنت احصل عليه من عملي في مصنع الكبريت . كنت اعود الى البيت قبل غياب الشمس مستقلا الترامواي ، مراوغا قاطع التذاكر كعادتي التي اتقنتها ، مع مرور الايام . كنت اقفز من عربة لاخرى مراقبا المكان الملائم عندما ينهمك الجابي في عمله . وفي البيت كنت اعد قروشي واحدا واحدا . غير انمغامرتيالتجارية هذه توقفت قبل اوانها . فقد لفت انتباه والدي اعلان في صحيفة عن دعوة من قبل مدرسة تبشيرية لاطفال اللاجئين للتعليم مجانا ، والثمن الوحيد المطلوب هو الركوع للصلاة خمسا واربعين دقيقة ليدخل المسيح قلبنا ، نحن الخطاة فنتعلم انه هو الذي وهب حياته من اجل خلاصنا . وانتعش والداي بخبر دخولي واختي المدرسة ، وكنت اساويهم انتعاشا وخاصة بالنسبة لشيء

غريب محرم كالذهاب الى المدرسة ، (في هذه الاثناء كان اخي الاكبر قد باشر بالعمل في احدى شركات النفط في السعودية) ، فذكريات مدرسة القديس لوقا بحيفا اصبحت بعيدة ومشوشة مثل حلم كنت احاول ، كلما استيقظت استعادته بلا جدوى : ايام كنت املك باعتزاز ، كتب الاطفال المصورة ، واكياس الحلوى •

في اليوم التالي كنت اول من استيقظ في البيت لاذكر اختي بأننا سنذهب الى المدرسة . عندما وصلنا الى العنوان الذي اشير اليه في الاعلان قابلتنا سيدة حيفاوية متوسطة العمر امضى معها والدي مايقارب العشرين دقيقة • كانا يتحدثان عن « مشكلتنا » ، وعما دار من نقاش بخصوص اللاجئين في الجلسة الاخيرة بهيئة الامم ، وكلاهما يذكر الاخر بالايام الحافلة الماضية ، وببعض الاماكن والاحداث ، وشعرا شعورا خارقا ان المستقبل يخبىء لنا انباء حسنة ، واننا سنعود ، بلا ادنى شك ، الى بلدنا في المستقبل العاجل • كان بين الغريبين رباط خفي من الدفء والمودة • كانا فلسطينيين يعانيان استئصالا واحدا • وفي تلك الايام ، كان الفلسطيني حين يلتقي بفلسطيني اخر يتوق لكي يلمس فيه ذبذبات الالفة ليشاركه الالم الذي بات يعمي العيون ، ويشاركه تلك القيمة الخفية في الذهنية الفلسطينية والتي فرقت جوهر « نحن » عن « هم » • هكذا اخذ كل منا ، يتوق لكي يقترب من الاخر ، كاننا نحاول بذلك ان نتساوى في حمل العبء ، ولملمة الضياع فالرسميات المميزة التي فرقت مجتمعنا في فلسطين وميزت بين مفكر ونصف متعلم ، بين المهني والحرفي ، بين الطبقة المتوسطة والطبقة العليا ، بين الغني والفقير ، والتقي والملحد ، والمسيحي والمسلم ، ان تفاصيل هذه الفروقات كلها سقطت بيننا ، سقطت كلها •

اذكر عندما كنت ابيع العلكة ، ذات يوم ، في الشارع ، كيف كنت اركض وراء احد الطلاب وانا اتوسل اليه ليشتري مني • التفت نحوي الطالب وبعد ان لاحظ لهجتي سألني ان كنت فلسطينيا • وعندما اجبته بالايجاب ، ربت على كتفي بلطف وحرارة قائلا : « الله يرضى عليك يا شاطر » وناولني بعض النقود ، فشكرته وانا اردد وراءه « الله يوفقك يا خوي » ، وخلال مقابلة ابي للسيدة الحيفاوية احسست بالشعور نفسه • لقد امتزجت معاناة الفرد منا بمعاناة الجماعة ، وامتدت لتعانق الاخرين الذين كبح جماح احساساتهم وادراكهم ، وحط من قيمة نفوسهم • اذكر ايضا خلال السنتين التي تلت ، انني كنت ذات مرة على الشاطيء مع جماعة من اللبنانيين عرفتهم من رأس بيروت ، ولاحظت عن بعد صديقا يهوديا كان يجلس وحده فوق الرمال ، فسألته ان يشاركنا الجلسة ، وعندما اكتشف اللبنانيون هويته اليهودية اخذوا يتصرفون بعداء موجهين الكلام اليه وكأن مسؤولية الصهيونية قاطبة كانت مسؤوليته هو • وفي لحظة من التفهم (هكذا ظهرت لي انذاك) خلت انني صرت يهوديا ، وان اليهودي صار فلسطينيا ، وان الاثنين يرتبطان برابطة شعبية وثيقة طالما ارهقها العبء الثقيل وطالما عذبها الاضطهاد • تزايدت كراهيتي للبورجوازي العربي وبناء قيمه سواء من الوجهين السياسي وغير السياسي • والمضحك فى تشردي انني كنت اشعر خلال نموي ان البعبع ، بالنسبة لي ، لم يكن اليهودي (بالرغم من الدعاية المستمرة التي تعرضنا لها من اذاعة القاهرة)، وانني لم اشعر ان الصهيوني عدوي (انذاك لم اكن افرق بين الصهيوني واليهودي) ، او ان عدوي الاستعمار او عملاء الغرب او الدول التي تصون

دولة اسرائيل • كان عدوي المباشر : العربي • عربي الشارع الذي يسالك ان سمعت اخر نكتة عن الفلسطيني الذي••• العربي الذي يعمل في دائرة الاجانب والذي يفرض عليك ان تنتظر الساعات متذللا للحصول على اذن عمل ، العربي في دائرة الشرطة الذي يحس ان من المسموح له ان يسيء معاملته لك ، العربي الذي رفضك ، وفي اكثر الاوقات حرجا انتزع منك حسك بالامل وحسك بالاتجاه • انه هو البعبع الذي كنت تراه بأم عينيك ، كل صباح وكل مساء ، وفي كل رأس سنة جديدة ، وكل عقد من السنين ، كنت تراه يعذبك ويقلصك ، ويحط من انسانيتك ويؤكد عبوديتك • فبالنسبة للفلسطيني ، الفلسطيني الشاب الذي عاش ونما في المجتمع العربي ، كان الاسرائيلي عدوه في المسالة الحسابية ليس الا ـ لكننا لم نره قط ، ولم نعش تحت نيره ، وبالنسبة للكثيرين منا لم يعودوا يذكرونه ، فأسباب الحياة في مخيم اللاجئين ، والاحساس بالجوع كانت اسبابا مجردة ، اما نتائج استمرارها فقد كانت حقيقية وملموسة •

وبدل ان يتشتت الوعي الفلسطيني لدينا فقد تعزز بمسحة من الحذاقة المصقولة ذات البعد الجديد • وقد انصب هذا الوعي في اتجاه ذي شطرين: الاول المحافظة على ذكرياتنا لفلسطين والثاني تحصيل العلم • فقد اصررنا على رفض مشاريع التسكين ، ورفضنا التعويض المالي الذي قدمته لنا هيئة الامم لتثبيتنا في البلدان التي لجأنا اليها • لم نرض بأقل من العودة الى ارض الوطن • عبر حدود سوريا او حدود لبنان او الاردن كنا نرى،عن بعد اميال او امتار قليلة ، الارض التي ولدنا فيها والتي عشنا عليها ولمسنا ترابها ، كنا نصرخ « هذه الارض ارضي » ، كنا نبكيها نغنيها ، نهتف لها او نمنطقها • والى هذه الارض بالذات جاء شعب ، جماعة من الغرباء المستعمرين ، جاؤوا بمساعدة العالم الغربي الذي استعجل للتخلص من عقدة الذنب والعار لديه • وجاءنا هذا المحتل يطلب الاستقلال منا ومن التاريخ والسماء •

كنت اذهب الى المدرسة برفقة اختي كل يوم • وقبل انصرافي كل منا الى صفه ، كنت افتح قلبي مدة خمس واربعين دقيقة على محبة يسوع المسيح لتتسرب اليه ، ولكي اتعلم كيف ان المسيح وهب حياته لنا نحن الخطاة من اجل ان نحيا • كنت احب المدرسة كما يحبها القلة من الاطفال وكنت افيض بالحماسة والبهجة وانا ارى نفسي اقرأ بصوت عال ، وكنت اسكب كل ما عندي من التأمل والحبور في فروضي المدرسية ، وكنت ارقص فرحا لدى التمرين من اجل تقديم مسرحية ما او لكوني الاول في صفي كانت تستثيرني قراءة كتب كنت اعرفان كل ورقة فيها ملكي، كنت المسها واشمها واعيد قراءة كلماتها ، وكنت اشعر بدور الاعتزاز في البيت وانا استعرض معرفتي بالجمع والطرح والصرف والنحو وقراءة الشعر ، كنت اشعر بالبهجة لانني بدأت اعرف اين تقع اندونيسيا ، ولانني بت اسرد عن ظهر قلب مآثر نابوليون •

عندما جاء فصل الصيف اخذت ابحث من جديد عن عمل • غير ان تجميع علب الكبريت او التجول لبيع العلكة او السرقة باتت كلها سلعا مهينة بالنسبة لصبي وصل مرتبتي • كنت اعرف اين يوجد المال واخذت اصوب الهدف عاليا • وذات يوم بينما كنت امشي على الكورنيش لاحظت ناديا ممتازا للسباحة كان مقصورا على فئة خاصة من الاميركيين والانكليز• واخذت افكر بالقيام بمشروع ما حول النادي • وذات صباح منور ، حملت

كل ما كنت قد جمعت من قروش واتجهت صوب النادي باحثا عن اقرب مخبز في طريقي · ومن المخبز اشتريت عشرين كعكة واستاجرت بسطة ، ثم وقفت مع بضاعتي امام بوابة نادي السباحة بانتظار الزبائن ·

بعد لحظات قليلة مر لبناني متوسط العمر ، اكتشفت فيما بعد بأنه الناظر على غرفة الخزائن الشخصية ، تريث لحظة بعد مروره ثم التفت واخذ يزعق بكل عزمه ، فارتعبت لبلاغة الغضب في صوته :

ـ «يا اولاد الحرام· يا عكاريت· الم اذكر لكم من قبل بأن وقوفكم هنا ممنوع · يا الله تحرك من هنا قبل ان اكسر رقبتك » وما ان فرغ الرجل من صياحه حتى احمر وجهه · وفيما كان يعزم على الهجوم ليضربني ، فزعت حتى انني تسمرت ولم ابد اي حراك · وقد خشيت ان افتح فمي لئلا يدرك لهجتي ويدعو ذلك الى شعوره بمزيد من الحرية ليضربني كما يشاء وحيثما شاء · « يا الله تحرك من هنا يا ابن الشرموطة قبل ان ارميك وارمي كل هذه القذارة في الماء » ·

فقلت « نعم يا سيد »

« اذا يا الله · لماذا تاتون الى هنا ـ سبق ان قلت لكم يا خنازير الا تظهروا في هذه المنطقة » ·

وفيما كان الرجل يهدىء من غضبه كنت اسعى بارتباك للم البسطة التي تعلقت في تلك اللحظة الحاسمة ، برجليها في شق الارض · وفي هذه الاثناء ، رأيت المستر ماكميكن يصعد الدرجات خارجا من النادي · كان المستر ماكميكن اميركيا رقيق القلب من ولاية كانزاس · وكان من عادته ان يأتي الى مدرستنا كخطيب اثناء ركوعنا للصلاة ، وكان يربت على رؤوس التلاميذ ويهمس في اذن كل واحد منا « يسوع المسيح يحبك » · لاحظني المستر ماكميكن عن بعد وتدخل ليدافع عني قائلا للرجل بأن غضبه لا مبرر له اطلاقا ·

عندما عرف المستر ماكميكن سبب الصياح قال للمناظر ، « انا اعرف هذا الصبي ، فهو تلميذ في احدى مدارسنا · وانا اشهد بسلامة اخلاقه · وسوف اتصل بالاستاذ عباس حتى يسمح لهذا الطفل ان يتابع عمله الذي لا يؤذي احدا · والان اقترح عليك ان تتوقف عن تهديدك اياه · »

وهكذا عملت هناك ما يزيد عن الشهرين · في الايام الاولى لم يكن البيع مرضيا ، ولكن بعد ان اعتاد الناس رؤيتي كعامل ثابت على المدخل وبعد ان صرت اتبادل مع السباحين التحيات والسلامات ، واخذ بعضهم يناديني باسمي الاول ، تحسنت اوضاع البيع · وفي ايام السبت والاحد كنت عادة اعود الى المخبز عدة مرات في النهار لاملأ طبقي من جديد · اما المناظر اللبناني الذي كان اسمه انطون فقد عاملني بشيء من المودة ، ولكن على مضض وتركني وشاني ، فعلاقتي بالمستر ماكميكن وشعبيتي بين اعضاء النادي ادهشت انطون ، وجعلته يحس ، ازائي ، بشيء من الرهبة · الا انني كنت امقت عادته اليومية عندما كان يأتي الى البسطة ويتناول كعكة

او كعكتين ويأكلهما دون ان يدفع لي الثمن ، وكأنه كان يحس بأن له الحق في اغتصاب جزء من نصيبي ورزقي . حتى انه جاء ذات يوم مع ولديه وقد جلبهما معه الى النادي وتوقفوا عندي وتناول كل واحد منهم كعكة دون ان يدفعوا لي ثمنها .

كان احد ولدي انطون من جيلي ، وبصفتي فلسطينيا ، وبائعا متجولا، بشكل خاص ، فقد إعتبرني ابنه هذا ذا وضع حقير ، وكان يعاملني بشيء من التنازل وكأنني احد خدمه. وفي احد الايام طلب مني ان اذهب واشتري له مرطبا ، فقلت له لا وقت لدي .

ـ « صحيح ؟ » سألني ، ثم تابع : « لكني اريد منك ان تشتري لي المرطب حالا . »

ـ « يا سيدي ، انا مشغول الا ترى الحال ؟ »

ـ « اذا لم تقدر ان تشتري لي المرطب فسوف اخبر والدي عنك »

فاجبته : « انقلع من هنا يا ابن الشرموطة » .

فأخذ يركض نازلا الدرجات ولم يظهر ثانية الا بعد ان حان وقتهم ليغادروا المكان .

على الاقل لم يكن انطون يزعجني او يقف في طريقي عندما كنت اذهب لاغوص في الماء كلما سنحت لي الفرصة بين ساعات العمل . كنت اشق طريقي في الماء نحو الرمث الخشبي الذي يبعد بضع اقدام عن المغطس ، وهناك كنت اتمدد معلقا رجلي في الماء ، وكنت افكر ، في ذات نفسي بمغامرات القصص التي كنت اقرأها انذاك مثل قصص هـ. رايدر هاجارد ومغامرات ابن بطوطة ، وكنت احلم بنفسي عائدا ذات يوم الى حيفا حيث لا يوجد من يقول لي ، « يا فلسطيني ، يا نذل » لان كل شخص هناك يكون فلسطينيا .

فواز تركي

(ترجمها عن الانكليزية كمال بلاطة)

الياس شوفاني

سقوط قرية *

تركنا البيت ، اخي الاكبر وانا ، صبيحة الحادي والثلاثين من تشرين الاول، سنة ١٩٤٨ . وكان اخي قادما لتوه من الجبهة، وهكذا وضع قدومه حدا لانتظاري القلق المتلهف . وقد اوصى ابي باخلاء البيت ، قبل بزوغ الفجر ، وكان قد تركه قبلنا بثلاثة ايام ، مع احد اخوتي وعدد من اعضاء المليشيا واتجهوا جميعا صوب الحدود اللبنانية بعيدا عن الجبهة المنهزمة . ولبضعة ايام خلت ، كانت امي ومعها ثلاثة من اخوتي يختبئون نهارا ، في الاحراج القريبة من القرية وينامون ليلا في المغارات وهكذا بقية اهل القرية ، ولكن الامر هذه المرة كان مختلفا ، فقد خافوا ان تزداد الغارات بالقنابل ، وكان شعورهم بالخيبة والفشل يزداد ، خصوصا ان القرية نفسها كانت بمثابة جبهة قتال استمرت ستة اشهر ، وقد حاول العدو ، مرات عديدة ، ان يخترق خطوطها الدفاعية والاستيلاء عليها ، فاستعصت عليه . وفي حقول الزيتون الغربية التي لا تبعد عن القرية اكثر من ثلاثة اميال ، كانت الخطوط الامامية للهاغاناه محصنة تحصينا شديدا ، وكانت عكا وكل المنطقة الساحلية الى الشرق وحتى كابري قد سقطت في يدهم قبل ستة اشهر ، اي في ايار .

★ اروي في الصفحات التالية ما حدث في قريتي معلية وباقي الجليل الاعلى في الحقبة الزمنية التي سبقت الاستسلام لجيش الدفاع اليهودي (او الهاغانا) . حاولت هنا ان اوضح بعض مظاهر الحياة في قرية فلسطينية خلال حرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ كما حاولت ان القي اضواء على بعض اسباب الهزيمة التي آلت اليها هذه الحرب .

واكثر ما يهمني التطورات التي جرت في مجتمع القرية ـ وكلها انتهت قبل ان تتبلور . وهدفي في هذا المقال هو درس تاثير المشاركة في الكفاح المسلح على حياة مجتمع قروي .

وقد بدأت تظهر لي اهمية تجربتي في فلسطين وانا حديث السن في ضوء الاحداث منذ حزيران ١٩٦٧ . وسيكون هذا المقال « سقوط قرية » فصلا من كتاب انوي وضعه عن تجربتي هذه .

ومع اولى خيوط الفجر ، ومن على سطح منزلنا كنا قد رأينا الجنود يدخلون القرية من الجهة الاخرى ، الجهة الغربية • وكان علينا ان نعمل بخفة فلملمنا بعض ما وقع تحت ايدينا من حاجياتنا وغادرنا بسرعة متجهين شرقا نحو وادي القرن • وكنا بذلك نحاول ان نبتعد بأكبر سرعة ممكنة عن انظار الجنود وعن مرمى بنادقهم •

كانت تحلق في الجو طائرات صغيرة لذلك سعينا ان نمشي في ظلال الاشجار ، وصلنا الى سفح الوادي وبدأنا نتسلق المنعطف الاخر نحو فسوطة وهي قرية اخرى تبعد ستة اميال على طريق رميش في لبنان • وعندما وصلنا اخيرا الى اخر المرتفع كنا قد تسلقنا اربعمئة متر في طريق مستقيم • وكان الحمل الثقيل على اكتافنا قد اعيانا ، فجلسنا فترة في ظلال الاشجار واخذنا قسطا من الراحة•ومن النقطة المرتفعة التي كنا نجلس عليها رأينا القرية على المنحدر في وضح النهار ، وكذلك بساتين الزيتون التي تحيط بها ومن هذه البساتين ظهرت مجموعة صغيرة من الرجال • ثمظهرت مجموعة اخرى خلفها ، وسرعان ما بدا جليا لنا ان المجموعة الاولى تابعة لجيش التحرير وان المجموعة الثانية من رجال الهاغناه ، وكانوا يتعقبونهم بضراوة •

فجأة ، طلقات الرشاشات • بضع طلقات صوبت الى رجال الهاغناه فتواروا بسرعة وتفرقوا • واستفاد متطوعو جيش التحرير المحاصرون من هذه الفرصة فاختبأوا في منعطفات الوادي المغطاة بكثافة ، ثم انتظرناهم ، وعندما وصلوا حييناهم كلا باسمه • انهم من اعضاء الفرقة اليمنية التي كانت قد جاءت الى قريتنا منذ اكثر من سنة • وقد قص علينا الرقيب صلاح قصتهم بينما كنا نتابع رحلتنا في المجهول•

قيل لنا ان القائد العام للمنطقة وهو عراقي اسمه العظمة لم يكن يعلم الرقيب صلاح عن الانسحاب الوشيك لجميع قوى جيش التحرير العربي من المنطقة • كانت قد نشبت بضعة خلافات بينهما ولهذا كان صلاح متأكدا ان المأزق الذي اوقعه فيه رئيسه لم يكن نتيجة اهمال ، ولم يكن خاليا من سوء النية • وكان يأمل دائما ان يكون اخر جندي يترك فلسطين ، وقد نجح في ذلك تقريبا •

اليوم وبعد اربع وعشرين سنة لا يوجد اي نصب على هضبات الجليل الغربي لصلاح ورفاقه حيث قاتلوا في معارك عدة • لقد شاهدت فيما بعد وسمعت عن اعمال بطولية قام بها القاوقجي والشيشكلي وكلاس وعلوش وكثير غيرهم كانوا على مسرح الاحداث فترة تتجاوز السنة ، وبرزوا بعد ذلك لاسباب غيرها • ولكن لم يذكر احد على حد علمي اسم صلاح ، الا الذين قاتلوا الى جانبه • وكانت الدموع تنهمر من اعين الجميع بينما كان صلاح يصف ما جرى في الايام الاخيرة وكيف بقي يحافظ على مراكزه كي يخفي انسحاب الميليشيا المحلية تحت قيادة ابي • وقد افضى لنا صلاح بالمرارة وبخيبة الامل التي يشعر بها في قيادة جيش التحرير وفي الحكومات العربية ، وكان يتساءل الى من تتوجه الميليشيا المحلية واخوانه في السلاح طالبين الدعم • انه يعلم ان الجامعة العربية والحكومة اليمنية ستهتم به عندما يصل الى لبنان ، ولكنه لم يكن يعرف ماذا سيكون مصيرنا نحن • وباندفاع عاطفي اصر علي وعلى اخي ان نلتحق بـه وبرجاله وقال انه

يرحب بكل من يريد ان يلتحق به من اهل القرية وانه سيكافح من اجل قبول تطوعنا حالما يصل الى مركز القيادة في عيثرون بلبنان • وفيما اكدنا امتناننا له ، اخبرناه بأن علينا ان نفترق ، فثمة واجبات نحملها تجاه امي واخوتي الثلاثة الصغار • وكانوا قد وصلوا الليلة الماضية الى منزل احد الاقرباء في فسوطة • وكان على صلاح ورجاله ان يلتحقوا بوحداتهم رغم شعورهم بأنهم تركوا للموت او على الاقل اهملوا • وعندما سارع كل منا للقيام بواجباته ، ودعناهم املين ان نلتقي من جديد وكانت هذه اخر مرة نراهم ، او نعرف عنهم شيئا •

الفرق العسكرية

ي الخطوات الاولى من الطريق بدأت محادثة حامية بيني وبين اخي• كنا نتحدث عن الفرقة العسكرية اليمنية • وبما انني كنت في الرابعة عشرة من العمر فان سني لا تهيئني،في نظر البالغين،الى اقامة اية اتصالات مع هؤلاء ولم اكن قد شاركت في القتال او قمت بمهام الحراسة بعد ، ولم اعرف عن وجودهم في القرية الا الجانب السلبي • كنت قد رأيتهم سكارى في الشارع• اذكر بوضوح يوم وصلوا الى القرية والخلافات التي نشأت، بسبب ذلك، بينهم وبين اهلها • كانوا بالنسبة الي ولكثير غيري غرباء استولوا على مدرستنا وبعض البنايات الكبيرة الاخرى • وكانوا يزعجون النساء ويجبروننا على خدمتهم دون مقابل ، اما اخي فكان قد شارك في القتال الى جانبهم وتعرف اليهم عن كثب •

لم يكن باستطاعتي ان انسى ان عمتي تعمدت اغراق نفسها لتتفادى تحرش جندي ثمل بها • اما اخي فكان يعرف الجانب الاخر من الصورة لانه شارك في عدة معارك الى جانبهم ، وامضى ليالي طويلة معهم في الخنادق خارج القرية ، وكان يعرف الاتصالات اليومية بين الميليشيا المحلية والقوات النظامية ، ويعرف طبيعة اليمنيين الطيبة واخلاصهم •

اما ذكرياتي فكانت مختلفة : اذكر مشادات بين ابي وقادتهم يوم وصلت الفرقة الى القرية • لم يكن اهل القرية يريدون ان يتمركز اليمنيون في منازلهم ، وتشددوا في موقفهم هذا ، كما اصر مجلس القرية على الا يساعد في خلق تجربة مزعجة كالتي حصلت في السابق مع فرقة اردنية • واستنادا الى هذه التجربة هدد بعض اعضاء الميليشيا باتخاذ اجراءات لمنع كل تدخل جديد في القرية ، ومن جهة اخرى تصرف الضباط اليمنيون وكأنهم على رأس جيش احتلال ، معتبرين انفسهم رأس الحربة في خلاصنا من اليهود ، وان من واجباتنا خدمتهم كما يليق بهم • واخيرا كان للميليشيا ما ارادت ، فتمركز اليمنيون في المدرسة على بعد ميل من القرية • وعلى العموم لم ينس اليمنيون بسرعة هذه الصفعة وقرروا ان تدفع القرية ثمن موقفها •

اما اهل القرية فانهم لم يكونوا يذكرون سوى الحادث السابق مع الاردنيين اذ كانت الفرقة الاردنية التابعة لجيش التحرير العربي قد وصلت الى القرية في عيد ذكرى انتصار القديس مار الياس على كهنة بعل • وتوجه الجنود الاردنيون نحو منزل المختار فوجدوا بيته مقفلا ولم يعثروا على احد حول البيت ليسألوه عن مكان وجوده ، ولما عرفوا ان القرية مسيحية وان

الجميع يحضرون القداس استشاطوا غضبا وتوجهوا رأسا الى داخل الكنيسة وامروا كل من فيها ان يخرجوا ويتبعوهم فورا • كانوا يريدون حطبا ليطبخوا وماء ليشربوا ومساعدة لتفريغ حمولات شاحناتهم • بسرعة تكهرب الجو في الكنيسة اذ لم تشهد حادثا كهذا حتى في الحرب العالمية الاولى • ومنذ البدء اختلفت الاراء ، فالشيوخ ينصحون بالتروي اما الشباب فيطالبون برد الاهانة ، وبما ان اهل القرية مسلحون — فكان قد سبق ان باعوا مجوهرات نسائهم ليحصلوا على السلاح للدفاع عن انفسهم — فقد طالب الشبان برد الاهانة بعد ان اختفوا من الكنيسة وعادوا مسلحين واحتلوا سطوح المنازل والنوافذ وزوايا الشوارع • ومن مخابئهم وجهوا انذارهم قائلين « اتركوا الكنيسة والا ••• » وحسب العادة العربية المتبعة توسط شيوخ القرية لتسوية الخلاف • واخيرا تنازل الجنود عن مطالبهم وعاد الشباب الذين تحدوهم الى بيوتهم • وهكذا امكن الوصول الى تسوية مقبولة حافظت على كرامة الجميع وتجنبت اراقة الدماء •

بعد هذه الحادثة اصبح واضحا لدى اهل القرية وقيادة جيش التحرير العربي انه لا امكانية للتعايش بين الفرقة الاردنية والميليشيا المحلية • ولما جرى نقل هؤلاء الجنود الى الجليل الادنى ،حلت الفرقة اليمنية محلهم • وبدا واضحا ان تصرفات اليمنيين تجاه الفلاحين غير ودية ، وانهم يحتقرونهم • وكانوا يحكمون القرية من المدرسة التي اتخذوها مركزا لقيادتهم • ولم يكن عندهم اي تقدير لممتلكات او لعمل هؤلاء الناس الذين يفترض انهم جاؤوا لتحريرهم • وقد فرضوا على اهل القرية ان يحفروا الخنادق ويجمعوا الحطب ويؤمنوا المياه وغير ذلك من الاعمال • وبغية تخفيف اعباء حراسة العمال في اثناء عملهم وضعوا يدهم على الخيول الموجودة في القرية وسخروها لخدمتهم •

استمرت الحالة على هذا المنوال حتى تعب الفلاحون من هذه المعاملة• وفي هذه الاثناء حصل الاهلون على مزيد من الاسلحة والذخيرة • وقرر الجيش استعمال هذه الاسلحة فاستنفرهم واستخدمهم في الحراسة الليلية على خطوط الدفاع ، ولم يمض بعض الوقت حتى اصبح واجبا على كل من يستطيع ان يحمل السلاح امضاء ليلة ، كل يومين في الخنادق ، وبسرعة شعر الفلاحون انهم هم المسؤولون اكثر من الجنود عن الدفاع عن انفسهم• لم تثبت الميليشيا المحلية مركزها الا بعد مضي سنة، وبعد ان حاربت جنبا الى جنب مع الجنود واجبرت المهاجمين على التراجع • وفي هذا الوقت تأكد لدى الجنود ان لا غنى لهم عن الميليشيا لترشدهم في المناطق المألوفة لديها• وبما ان المدرسة كانت صغيرة ولا تتسع لاسكان جميع الجنود فقد قدم لهم القرويون عدة منازل كبيرة في اول شتاء امضوه في القرية • وفي الربيع شوهد الجنود يساعدون الفلاحين في اعمالهم الموسمية• وفي احد ايام آب من سنة ١٩٤٨ شنت قوى الهاغناه هجوما عنيفا على خطوط دفاعنا الامامية في منطقة تل الاحمر • واحتلوا الموقع واجبروا الحراس الليليين على الانسحاب الى خط الدفاع الثاني • وفي اليوم التالي شنت قوى جيش التحرير والميليشيا هجوما معاكسا ادى الى استرجاع مواقعهم الاساسية• وكانت معركة حامية تركت فيها الهاغناه بعض الضحايا وراءها • وبدا واضحا لدى القيادة ان العدو سيعود في الليلة الآتية لينقل ضحاياه • فسحب جيش التحرير قواه من الموقع وحشد جميع قواه على خط الدفاع الثاني • وعندما اقبل المساء عاد العدو يحتمي بنيران ثقيلة واخذ ضحاياه

وتراجع الى خطوطه . نتيجة هذه المعركة التحم اهل القرية والميليشيا وجيش التحرير في قوة واحدة . كان كل جندي على الخط الامامي يحارب، وكان كل فرد من القرية يقدم المساعدة في المجهود الموحد . اما الميليشيا فحاربت جنبا الى جنب مع جيش التحرير ، ونقل رجال اخرون المعدات والذخيرة الى المواقع الامامية . وكانت النساء تهتم بنقل الماء والطعام للمقاتلين . وعندما اضطر القرويون الى اخلاء بيوتهم بعد عدة اشهر من هذه الحادثة ، ساعدهم الجنود على نقل الاولاد والامتعة . وفي نهاية سنة من النضال كانت الفرقة اليمنية واهل القرية قد صاغوا ما يسمى بالحرب الشعبية ، ولا اظن ان ذلك كان ممكنا لو لم تكن القرية قد اثبتت جدارتها وبرهنت على قدرتها في المشاركة .

المفاوضون

ما ان وصلنا انا واخي الى فسوطة ظهر احد الايام في تشرين الاول حتى سمعنا انفجارا مدويا ، ورأينا عمودا من الدخان يتصاعد من جانب القرية حيث يقع منزلنا . ولما انقشع الدخان ظهر لنا انه كان من منزلنا بالفعل . وكان اهل فسوطة يترقبون ظهور الهاغناه في قريتهم ، لذا قرروا البقاء في بيوتهم . وكان البعض قد اشار باخلاء القرية ، ولكن الاكثرية رأت انه ليس عند اليهود اي سبب لينفسوا عن غيظهم هنا ، اذ القرية بعيدة جدا عن مسرح القتال ولم يشترك اهلها في المعارك ضد الهاغناه . واخيرا لم يغادرها الى لبنان الا القليل ، وبقيت الاكثرية . واخذ اخي الكبير والدتي واخوتي الثلاثة الصغار وتوجهوا الى رميش . وبقيت انا في فسوطة في منزل احد اقربائنا .

كنا انا واخي عندما تركنا منزلنا في معلية على يقين اننا نحن اخر من ترك القرية ، ولكنني علمت في اليوم التالي اننا كنا على خطأ ، اذ ان الكاهن واحد المقعدين بقيا واعلنا استسلامهما وتفاوضا لعودة سكانها . وكان احد اصحاب الدكاكين واحد المعتوهين قد اصيبا برصاص قاتل في اثناء هروبهما . استولت الهاغناه على القرية واتى الكاهن للتفاوض . وبعد ان وقع على معاهدة الاستسلام بعث بالرجل المقعد ليخبر القرويين الذين كانوا يختبئون في الهضاب المجاورة .

وقبل ظهر اليوم التالي علمت ان الهاغناه حصلت على جميع المعلومات التي تريدها من الكاهن وشيوخ القرية الذين اتى بهم المقعد . عرفت عدد الاسلحة ومن يملكها . فهدم منزلنا ليكون عبرة لكل من لا يسلم سلاحه . وارسل مراسل بسرعة الى رميش وجمع السلاح وسلمه للهاغناه .

وفي اليوم الثالث عدت الى وادي القرن وامضيت الليل في طاحونة مهجورة مع بعض رجال قريتنا . وكانوا قد جمعوا بعض الماعز الضائعة عن قطعانها التي نقلت الى الجانب الاخر من الحدود . وفي تلك الليلة نحرنا معزى وشويناها على نار في العراء واكلنا . وقد بقي هؤلاء الرجال عدة ليال في الطاحونة وكانوا ينحرون معزاة كل يوم . وكانت هناك مجموعات كثيرة أخرى تنتشر في الوادي وعلى الهضاب منتظرة اخبار الكاهن وفريق

الشيوخ الذين سلموا القرية • وخلال اسبوع عاد معظم هؤلاء الاشخاص النازحين الى بيوتهم •

وفي اليوم الرابع عدت خفية الى القرية وتوجهت فورا الى بيتنا المهدوم • كان المنظر يسحق القلب : كومة حجار وآثار منتشرة تعطي فكرة عن الهيكل الاساسي للبيت • وكانت الابواب والنوافذ المكسرة مطروحة ارضا • وفي تلك الليلة عدت الى الوادي وتوجهت في اليوم التالي الى فسوطة ، وفي طريقي من فسوطة الى معلية وعودتي منها رأيت اكواما من الامتعة منتشرة حول الطريق دون من يحرسها • ولم يكن احد يفكر في سرقة هذه الاشياء اذ ان اهل القرية الذين لم يعرفوا بقدسيتهم ، كانوا قد تغيروا تغيرا جذريا من خلال الحرب الشعبية • ولم تدم ظاهرة مراعاة الاخرين هذه كثيرا بعد الاحتلال • اذ سرعان ما عاد الناس اليائسون الى عاداتهم القديمة •

سلاح معليه

كان يقطن معليه في سنة ١٩٤٧ اقل من الف شخص ، يهتمون بزراعة منطقة الجليل الاعلى الجبلية ، ولم يكن ثمة اغنياء يذكرون كما لم يكن هناك فقراء معدومون ، ورغم هذا وجدت فوارق مادية بينهم •

وكانت القرية قد نالت نصيبها من المنازعات والاحتكاكات العائلية والقبلية ، ولكن هذا لم يؤد الى اهراق الدماء • ولم تكن العلاقات بين البدو واهل القرية دائما على ما يرام ، كانت علاقتهم ، على العكس ، طيبة مع المدينة المجاورة ترشيحا وهي اكبر بكثير من معلية واكثر سكانها من المسلمين • وفي اوائل الاربعينات كانت القرية قد عانت تجربة اقتحام البيوت النائية من قبل مجرمين مسلحين • وقد قتل احد ابناء ترشيحا في وسط القرية • وسرت اشاعة ان الرجل هو ابي • وتأزمت العلاقات بين القرية وترشيحا • وبعدها بدأ المجرمون والبدو — واحيانا بمساعدة الاهالي — ينشرون الذعر في قلوب الفلاحين العزل • وصارت قطاع الثيران الهدف المفضل للمخربين ، اذ ان الثيران كانت من اهم ممتلكات الفلاحين ، ولاهميتها الخاصة في المواسم الزراعية فان الفلاحين كانوا يدفعون اموالا كبيرة لفديتها • واصبح بعض رؤساء القبائل متمرسين في التواسط بين السارقين وضحايا سرقاتهم • وللاحتراس صار اهالي القرية يقفلون على انفسهم وعلى ممتلكاتهم ، وفي الحقول بدأوا يحرسون الحيوانات ليلا نهارا • واظهرت السلطات عجزها عن حماية مواطنيها ولم يكن لدى الاهالي القدرة على ذلك ، لان حيازة السلاح تورط في مخاطر كبيرة • اما الذين ملكوا بعضه فكانوا مجبرين على تخبئته بشكل يجعله غير مفيد في الوقت المناسب • وكان الناس يتكلمون عن السلاح وكانه غريب عن هذا العالم ، في حين ان شائعات سرت عن رجال يقتنون السلاح ولكن لم يكن احد يعرف بالتأكيد شيئا عنهم •

وفي اوائل سنة ١٩٤٧ كان حديث القرية عن الارهاب الصهيوني • وعندما بدأت فكرة الجهاد المقدس تنتشر في المناطق الريفية في فلسطين بدأ سكان معلية يفكرون باقتناء السلاح ، وشراء السلاح عملية صعبة • وكانت سوريا ولبنان المصدرين الممكنين • ومن هنا نشط التهريب عبر الحدود •

كانت الليرة بالنسبة للفلاحين عبئا ماديا خاصة ان موسم الدخان لم يكن كما يرتجى في تلك السنة • ولم يكن المال القليل الذي لديهم نتيجة لتهريب الدخان عبر الحدود الى لبنان ، كافيا ايضا لشرائه •

وفي اوائل سنة ١٩٤٧ اجتمع مجلس القرية ووافق على ان تشتري كل عائلة ، بندقية ، وسيكون لبنان مصدر تهريبها ، وعندما تصل البنادق الى القرية سيصار الى تخبئتها من الشرطة • وهكذا فان المسلحين لم يكونوا يجرأون على الخروج الا في الليل • وكان وجود القليل من السلاح في القرية موضوعا مثيرا للناس ، يتناقشون حول سعره واختلاف انواعه• ولم تكن قد اعطيت تعليمات مهنية حول السلاح ، ولكن الناس بدأوا يحيكون قصصا خيالية حول هذا الموضوع • وبعد ذلك بقليل نظمت حراسة ليلية حول البلدة • لكن الفلاحين واهل القرية لم يكترثوا بالبحث عن مدى فعالية هذا العدد القليل من السلاح في حماية البلدة اذا ما تعرضت لهجوم من الهاغناه • ومع هذا ــ ومع انه لم يكن هناك الا حارسان ليليان لمراقبة القرية من كل جهة ــ فان الاهالي استشعروا الاطمئنان •

ولم يكن هناك اية مستوطنات يهودية بالقرب من القرية ولم يكن الاهالي يعتقدون ان كيبوتس ايلون الموجود الى شمال القرية يشكل خطرا عليهم • كما اعتقدوا انه اذا كانت القرية ستهاجم فان الهجوم سيأتي من الغرب عن طريق نهاريا ، فقطعوا هذه الطريق بصخور ضخمة ، وظل يتناوب حراسته شخصان كل ليلة • ولم يحتك اهالي القرية مع البدو الا في اوائل ايار سنة ١٩٤٨ • وعندما كانت الاشياء قد تغيرت تغيرا جذريا : ففي القرية سلاح اكثر بكثير من ذي قبل ، كما ان الاهالي كانوا قد تمرنوا فعليا على استعمال هذه الاسلحة •

ولم تكن اهمية السلاح القليل الذي حصل عليه سنة ١٩٤٧ في فعاليته ضد العدو وحسب وانما اثر ايضا على العلاقات بين الاهالي والبدو من جهة وبينهم وبين اهالي ترشيحا المجاورة من جهة اخرى • ففي معلية ، شأن جميع القرى الباقية وبالرغم من الحزازات الداخلية والاختلافات في الطبقات الاجتماعية ، كان امن كل فرد ومركزه الاجتماعي يعتمدان الى حد كبير على انتسابه العشائري • وفي الخلافات بين العائلات كان الاضعف والاقل عددا هو الذي يعاني • وكان للعائلات الغنية والكبيرة عدديا مكانة مرموقة، وبات مألوفا ان يضطهد القوي الضعيف وان يستغل الاغنياء الفقراء • ولكن عندما بدأ الناس يشعرون بغياب السلطات البوليسية وعندما اصبح الفلاحون يدافعون عن انفسهم ظهر نوع جديد من العلاقات الداخلية : « نحن جميعا ضد الغرباء » • وتبلورت روابط مسؤولية مشتركة في المجتمع • ولم يشجع وجود السلاح اهالي القرية المشاغبين على تأزم الخلافات ، بل على العكس من ذلك وضع حدا للاحتكاكات بين العائلات • وخلال سنتين من غياب سلطة الدولة لم تقع اية حادثة او اية محاولة قتل • وكان مجلس القرية يقوم بمهمة الحكم في الخلافات • وبطريقة ما صار لدى المجلس سلطة مارسها بنجاح اكثر من ذي قبل ، واتخذ المجلس شرعية الهيئة الحاكمة •

وراء حدود العدو

لم يتمكن سكان معلية سنة ١٩٤٧ من تسويق محصول الدخان الى شركات معروفة كالمعتاد ، ولم يكن بمقدورهم كذلك ان يبيعوه بطرق شرعية في لبنان وسوريا لوجود الريجي في هذين البلدين . لذلك عمد الفلاحون الى وضع التبغ في علب زنة كل واحدة كيلوغرام واحد وهربوه الى ما وراء الحدود وباعوه في القرى التي لا تزرع تبغا . وقد وجد فقراء القرية في عمليات التسويق هذه عملا لهم وشاركوا بذلك في دخل القرية . وفي ايار سنة ١٩٤٨ احتلت الهاغناه معظم اراضي القرية الزراعية . وكانت مؤونة القرية من السنة الفائتة هزيلة ، فتناقصت بسرعة قبل ان يتمكن الاهالي من جني المحصول الجديد . وبما انه لم يكن هناك اي مصدر آخر للمؤونة ، وبما ان الفلاحين لم يكونوا يملكون مالا كافيا لشراء حاجتهم من الحبوب الاساسية ، فانهم لم يجدوا مخرجا اخر الا ان يحاولوا جني المحصول من الاراضي المحتلة بأية طريقة ممكنة . وكان في القرية بعض العائلات من كابري قد اخلوا بيوتهم عندما احتل العدو المنطقة الساحلية . ومع ان معظم اهل كابري كانوا قد هربوا الى لبنان ، فان بعضهم ممن وجد اصدقاء في معلية سكن هناك ، وفورا تقبل الفلاحون وجودهم وانصهروا في الميليشيا، لكن اهمية هؤلاء اللاجئين من كابري تكمن في مشاركتهم في المجهود الحربي في معلية وفي كونهم يعرفون السهول الساحلية معرفة حميمة . اما السهول فقد هجرت قبل اسابيع معدودة من موسم القطاف ، واقترح اهل كابري التسلل ليلا الى السهول المحتلة لجمع الغلال ، وكان اغراء الطعام لا يقاوم.

وفي آب تحول هذا التسلل الليلي عبر خطوط العدو ـ الذي كان قد بدأ محدودا وبعدد ضئيل من الناس في حزيران ـ الى عمليات ليلية واسعة . فحوالى الساعة الخامسة من كل يوم كان الفلاحون يتوجهون ومعهم حميرهم الى ابراج المراقبة المجاورة للقرية وينتظرون غياب الشمس بفارغ الصبر . ومع الغروب يشقون طريقهم في الوديان المتعرجة الى السهول ، حيث يحصدون القمح من حقول كابري والزيب ، وقبل بزوغ الفجر كانوا يحملون حصيلة الليل على الحمير ويعودون . ولم يمض وقت كثير قبل ان تصبح هذه العمليات متقنة تخطيطا وتنفيذا . وكان البعض يبقى في الحقول مختبئا في النهار كي يبدأ الحصاد باكرا في المساء . وكان اخرون يأتون لنقل الحصاد ويقومون بنقلتين او ثلاث في الليلة . لم تكن المخاطر التي تواجههم قليلة لكن كان لا بد للاهل من ان يخاطروا لانه لم يكن هناك مورد بديل . وفي القرى المهجورة على السهول الساحلية كان النازحون قد تركوا وراءهم عددا كبيرا من الماشية . وتجمعت الابقار التائهة بشكل قطعان كبيرة العدد وتحولت بسرعة الى ابقار وحشية سمينة، ولاحظ فلاحو معلية هذه القطعان وخططوا لرعي هذه الابقار وسوقها الى القرية ، ولكن تبين ان هذه العملية شاقة وصعبة جدا ، وكان البديل الثاني هو ان يقتلوا هذه الابقار وينقلوا لحمها الى القرية ، وهنا ايضا يكمن خطر الهاغاناه ، فقد تلاحظ ما يجري . ولكن مع ذلك قامت مجموعات صغيرة من الميليشيا المحلية باصطياد الابقار وكانت تساعدها في بعض الاحيان قوى جيش التحرير ، وهكذا اصبح في القرية مؤونة كافية من اللحم ، ودخل قليل للصيادين . وقد شارك الجميع في عمليات جمع المؤونة والصيد ، هذه.

وكان الاغنياء والفقراء يناضلون سوية لمجرد الاكتفاء • وبدأت الاختلافات الاجتماعية بين الطبقات تختفي كما بدأ الناس يعاملون بعضهم بعضا معاملة الند للند • ولما احتلت قوى الهاغناه حقول القرية كانت هذه الحقول مزروعة بالتبغ • وفي نهاية حزيران كان قد حان وقت القطاف ، وكان على اهل القرية ان يعرفوا تمام المعرفة مواقع العدو وان يعرفوا تحركات العدو وطريقة تصرفه في الليل • ولذلك نظمت عمليات استكشاف دلت على ان الجنود المسؤولين عن الخنادق كانوا يأتون بالسيارات على طريق نهاريا وانهم لا يقومون بدوريات في الحقول ولا على الطرقات المؤدية الى الوديان • وفي تلك السنة جمع كل منتوج التبغ في عمليات ليلية وشاركت في جمع الغلة النساء والاولاد وكانت بعض النساء قد تمرنت على استعمال السلاح • ومر ذلك الصيف دون وقوع اي حادث يذكر • ففي الساعات الاولى للصباح وبينما الفلاحون يعودون من الحقول كان حراس خطوطنا يطلقون عيارات نارية لالهاء العدو • وتعود الفلاحون ان يجتازوا طرقات الوادي الضيقة بينما يلعلع الرصاص فوق رؤوسهم • وبذلك تعلموا شيئا من فن خداع العدو • وبقدر ما كانت الايام تمر دون حوادث ، كان الفلاحون يصبحون اكثر جرأة • وبدأوا يتغلغلون الى مسافات اعمق في خطوط العدو واقرب الى تحركاتهم • وذات ليلة وبينما كانت احدى العائلات منغمسة في عملها فاجأتها قوى الهاغناه • ولما ظهر الجنود تفرقت العائلة واستطاع الجميع ان يعودوا الى القرية ما عدا احدى البنات التي خافت وارتبكت عندما رأت الجنود وهربت في الاتجاه المعاكس فلحق بها الجنود وقبضوا عليها • وفي تلك الليلة ساد القرية اضطراب شديد • وبدا للجميع استحالة القيام بالتفتيش عن الفتاة في صباح اليوم الثاني اذ انه لم يكن باستطاعة الفلاحين الوصول الى حقولهم الا في الليل • وبقي الناس يؤمون بيت الفتاة طوال الليل وكانت هناك نساء يجلسن في احدى الزوايا يواسين امها ، قلقات يتساءلن ما اذا كان الجنود الاسرائيليون سيعتدون عليها ام لا • اما في الجهة الاخرى من البيت فكان الحديث مختلفا تماما ، يرتكز على المهمة الاولى المطروحة وهي التخطيط لعمليات تفتيش واسعة في الليلة الآتية • وكان ابوها متاكدا انها ستكون مختبئة وراء احدى الشجيرات تنتظر النجدة • وحوالى ظهر اليوم الثاني ظهرت الفتاة قرب مواقعنا حاملة علما ابيض • وعند عودتها لم تسر الاشاعات المغرضة في القرية كما كان يحصل في الماضي • وحافظ طويلو الالسن على سكوتهم اذ انهم ادركوا ان الجميع في المأزق نفسه ، معرضون لان يكونوا الضحية واخيرا تزوجت الفتاة ولم يكن هناك اية شائبة في سلوكها •

حلم

كان هناك قرب معلية عدة قبائل بدو • وكانوا يرعون الابقار والجمال والماعز ، بينما انصرف عدد قليل لشراء ارض وبناء بيت ومزرعة • وكانت

العلاقات بينهم وبين الفلاحين من نوع غامض وغريب ، فمن جهة كانت هنالك رابطة الاعتماد المتبادل بين مجتمعين يقود كل منهما حياة مختلفة عن الاخر ومن جهة اخرى كان هناك الحقد الطبيعي النابع من تضارب المصالح · وكان الضرر الذي تلحقه قطعان البدو التائهة بالحقول سببا لقيام المنازعات، ومع ذلك فان الفلاحين كانوا يتكلون اتكالا تاما على البدو للحصول على الثيران اللازمة لفلاحة اراضيهم · كما كان بعضهم يشارك البدو في رعي البقر · وكان البدو في المنطقة يعتبرون اهالي معلية مسيحيين كافرين ولم يكن مرد ذلك الى كونهم متعصبين دينيا ولكن الى اعتبار الفلاحين حاجزا دون امتلاك السهول الواسعة للرعي · وفي ايام السلم كانت السلطات الحاكمة رادعا للنزعة الهدامة عند البدو في التجول في الحقول كما يشاؤون · وفي غياب السلطة عانى الفلاحون من تجاوزات البدو هذه · وكان بين معلية وقبيلة سويطات عداء قديم طالما ادى الى اهراق الدماء ، بحيث صار لكل واحدة ثأر عند الجهة الاخرى · ومع ان معاهده سلم كانت قد ابرمت بين القرية والقبيلة قبل سنة ١٩٤٧ بكثير فان العلاقات بينهما بقيت متوترة · وبقيت اراضي القرية محرمة على القبيلة كما انه بقي محرما على اهالي معلية ان يقتربوا من مرابط خيام القبيلة · والى الشمال كانت ترابط قبيلة السمينة على اراضينا وبالقرب من كيبوتس ايلون · والى الغرب والشرق كانت هنالك عدة قبائل اخرى · ومن كل الجهات كان البدو يشكلون خطرا على القرية · وعندما بدأت تنسحب سلطة الانتداب عن المناطق الريفية كان الفلاحون يعرفون ان هذه القبائل ستحاول بالتاكيد تصفية حساباتها القديمة معهم ولم يكن هناك اية جهة يمكن الاعتماد عليها لتدافع عن الفلاحين وكان لا بد لهم ان يتكلوا على انفسهم · وكان بمقدورهم ، اعتمادا على قطع السلاح القليلة التي كانوا قد حصلوا عليها ، ان يضبطوا رجالهم وان يجبروا البدو على اتباع سلوك حسن خوفا من هجمات انتقامية · وطوال سنة تقريبا لم تقع اية حادثة اقتحام منازل ، وكان قطيع القرية بمنأى عن محاولات السرقة ، والماشية تترك اياما في الحقول دون خوف عليها ، كذلك كان الفلاحون يمشون بأمان ويتركون ابوابهم مفتوحة · وباختصار كانت هذه الحقبة من الزمن تمتاز بأمان اكبر مما كانت عليه الحال تحت الانتداب·

ولم تقع اية حادثة بين قريتنا وبلدة ترشيحا المجاورة · كان اهل ترشيحا مسالمين تسودهم عقلية التجار اذ ان بلدهم كانت المركز التجاري والصناعي في المنطقة · وبما ان ترشيحا تعتمد على القرى المجاورة لها لإزدهارها فان اهلها كانوا يحرصون على الابقاء على علاقات طيبة مع هذه القرى · وكان شيوخ ترشيحا معروفين بحلمهم في كل الجليل الغربي · وكان بعض اهل ترشيحا قد لعبوا دورا في ثورة ١٩٣٦ · والحقيقة انهم نشطوا بعد الثورة اكثر مما كانوا خلالها اذ انهم اصبحوا بعدها مخربين يضطهدون القرى المجاورة· وباندلاع الحرب سنة ١٩٤٨ ظن هؤلاء المخربون القدامى ان باستطاعتهم ممارسة دورهم من جديد · وكانوا اول من اشترى السلاح وجمع مجموعة من المسلحين · ورأى هؤلاء المحاربون القدامى

تدليلا منهم على علاقات حسن الجوار ، ان يقوم المتطوعون باستعراض في شوارع معلية ، وزعموا ان هذا الاستعراض هو ضمن التمارين العادية ٠ ولكن ، مهما كانت المبررات فان اهل القرية لم يتحملوا هذه الحالة طويلا، وفي احد الايام اخرجت الميليشيا المحلية هؤلاء الضيوف الثقلاء بالقوة من ساحة البلدة ٠ ووضعت بذلك حدا لهذه الممارسة ٠ وقد حصلت لذلك بعض الحوادث الجانبية بين حراس مراكز مراقبة طريق نهاريا ٠ واخيرا حددت مهام كل واحد بوضوح فعرف حدوده وتعلم الا يتجاوزها ، ومع مـــرور الوقت امكن التوصل الى تنسيق اكبر بين جميع الفرق ولكن دمج القوات لم يحصل ٠

الراديو

في ذلك الوقت لم يكن يوجد في معلية الا مقهى واحد وكان الملتقى الوحيد لاهل القرية ، بسبب وجود الراديو الوحيد فيه ٠ وكان يعج بهـــم وخاصة حوالى السادسة وقت الاخبار ٠ وهنالك وفي بعض الاحيان كـانت تسمع طلقات نارية عندما كان راديو القدس يذيع عن انتصارات عربيـة ، ولكن مع بدء البث كان يسيطر الصمت التام ويستمع الجميع بانتباه الى كل حرف يقال ٠ وكانت هذه هي الثقافة السياسية الوحيدة التي تحصل عليها الاكثرية ٠ وبانتهاء الاخبار تبدأ محادثات حاميةوتعليقات على الاخبار ٠ امـــا الجرائد والمجلات فكانت معدومة ، وكذلك الوعي السياسي بيـن الفلاحين ٠ وكان فهمهم للمعركة بمنتهى السذاجة ٠ فهم يعرفون انهم يملكون ارضا وان اليهود يريدون الاستيلاء عليها ، وواجبهم ان يحولوا دون ذلك٠ ولم يهتفوا يوما بشعارات تظهر انهم يريدون ان يرموا اليهود في البحر ، ولم يتكلموا عن معركة تحرير عربية ، اما كلمتا « استعمار ، صهيونية » فلا معنى لهما في اذهانهم ٠ اما المطلعون قليلا فكانوا يعرفون عن التنافس بين الامير عبد الله والملك فاروق وكانوا يتكلمون عن التنافر بين السوريين والاردنيين ، ويعرفون كذلك عن الحزازات بين عبد الله والمفتي ، ولكن هذه كلها كانت موضوعات لا تهمهم مباشرة ٠ كان اهتمام اهـل معليـة يتعلق بالناس والارض ، اما مسائل السياسة الوطنية وحتى الاقليمية فلم تكن تهم الا شخصا او شخصين في القرية ، ولم يكن الفلاحون يهتمون بأية تطورات خارج القرية حتى لوكانت هذه التطورات في الجليل نفسه ٠ فمثلا لم يروا ما يقلقهم في الهجوم على يانوح وهي قرية تبعد بضعـة اميال عنهم الـى الجنوب ٠ وكانوا يركزون اهتمامهم على ما يجري الى غربي معلية ، وقليل منهم يعرف ماذا يوجد الى شرق البلدة ٠ كانوا يعرفون فقط ان هنالك عدة قرى عربية الى الشرق على طريق صفد ، ومن ثم فان خارطتهم الخاصة لا تحتوي على ما يسمى مستعمرات يهودية في منطقة الحولة، ولو ان الهاغناه، هاجمت القرية من الشرق لوضع الاهل اللوم – ويا للسخرية – على سكان القرى الاخرى المجاورة الى الشرق ٠ ولذلك فلا عجب ان يكون اهل معلية

ذهلوا ولم يفهموا ما حصل عندما سقط الجليل وبدأت قوى جيش التحرير تنسحب من المنطقة بشكل فوضوي ٠

الاحتلال

في صيف سنة ١٩٤٨ ارسل عبد الله احد ضباطه الى الجليل وكانت مهمته تقتضي ان يوجه للسكان انذارا بمعنى انه لن يدافع عن الجليل الا اذا بايعوه ٠ وحضر هذا الاجتماع عدد قليل من الناس وكان ابي بينهم وقرروا عدم المبايعة متأثرين برفض المفتي ٠ ومع ان هذه المسألة كانت شديدة الاهمية فان الفلاحين لم يكترثوا كثيرا لما يجري وكان من اسباب عدم الاكتراث هذه ان الاجتماع احيط بالسرية ٠ وظلوا يمارسون اعمالهم كالعادة : يراقبون خطوط الدفاع الى الغرب ويجنون محصول حقولهم وراء خطوط العدو في الليل ٠ وبعد هذا الاجتماع بقليل من الوقت بدأت عدة عائلات غنية من القرى المجاورة تترك الى لبنان او على الاقل تنقل الاشياء الثمينة التي تقتنيها الى اماكن آمنة عبر الحدود ٠ وحاولت احدى العائلات في معلية ان تحذو حذو العائلات الاخرى ولكن السلطات ـ خشية شيوع نزعة الهجرة ـ اتخذت قرارات تعسفية لمنع اي شخص من ترك القرية ٠ وكان على الميليشيا ان تنفذ هذا الامر ٠ وقد قوبل هذا القرار بمرارة وتذمر، ولكن لم يحاول احد خرقه ، وبقي الجميع في القرية ٠ وعندما سقط الجليل في ٣١ تشرين الاول من سنة ١٩٤٨ كان معظم سكان معلية في التلال والوديان المحيطة بالقرية ، ولم يقطع الحدود الى رميش الا عدد قليل من العائلات ٠ وعندما هزمت الجبهة توجه معظم اعضاء الميليشيا الى لبنان، وحتى في لبنان امضوا مدة من الزمن يعملون كمجموعة ٠ وعقد اجتماع في منزل خالي في رميش قرروا فيه العودة الى معلية ٠ وحمل البعض سلاحهم معهم في طريق عودتهم وجمع اخرون النساء والاطفال ورافقوهم الى القرية ٠ اما الباقون فقد عاد معظمهم خلال اسبوع او اسبوعين ٠ وهكذا ، في حوالى منتصف تشرين الثاني ، كان قد عاد اهل القرية كلهم تقريبا ليواجهوا احتلالا لمدة من الزمن غير محددة ٠

الياس شوفاني

اديب صعب

العنف والاخلاق :
هل يمكن تبرير العنف ؟

I - مقدمة

المسألة التي سوف اعالجها في هذه الدراسة هي التبرير الخلقي للعنف · اذا تأملنا في هذه المسألة وجدنا انها مركبة من ثلاثة اقسام : التبرير ، الاخلاق ، العنف ، وان كلا من هذه الاقسام يقتضي تحليلا وافيا · تحديد المسألة ، اية مسألة ، هو من شروط حلها · واكثر من هذا : ان تحديد مسألة ما او تحليلها يعني حلها فكريا · يبقى الحل العملي ، وهذا شيء اخر ، ولو كان تابعا للحل الفكري · من هنا كانت السياسة ، كما رآها ارسطو الرأي الصحيح ، مبنية على الاخلاق · السياسة تأتي بعد الفلسفة او الفكر لا قبلهما · السياسة الخاطئة تتبع الفكر الخاطيء ، والسياسة القويمة تتبع الفكر القويم ·

ملاحظة اخرى قبل الانتقال الى تفصيل الموضوع : من النظرات الخاطئة الى الفلسفة انها مجهود نظري لا يطبق ، وان الانشغال بها ضرب من ضروب الترف الفكري · وفي هذا لا نلوم الا جمهرة من اهل الاختصاصات ، ولا سيما الاختصاصات العلمية وفي طليعتها الفيزياء · ان الفيزيائي الذي ينتقد الفلسفة على اساس انها « نظرية » انما ينتقد خطا فلسفيا معينا هو الخط الذي يمكن ان ندعوه « روحيا »· وهو ، في نقده هذا يعبر عن موقف فلسفي مغاير لمواقف فلسفية اخرى ، وليس عن موقف علمي · صحيح ان الفلسفة نظرية · لكنها ، في كونها نظرية ، لا تختلف عن بقية العلوم الانسانية ، ان كل ما يدرسه طلاب المدارس والجامعات نظري · فالكيمياء مجموعة من النظريات في عناصر الاشياء · والفيزياء مجموعة من النظريات في الحركة · والدين مجموعة من النظريات في الروح · وعلم الاجتماع مجموعة من النظريات في عوامل تكوين المجتمع · وهكذا يقال عن جميع العلوم · كذلك الفلسفة مجموعة من النظريات ، لكنها تختلف عنباقي

العلوم في كونها تقتضي وجود جميع العلوم • النظرية الفلسفية من شأنها ان تبين قيمة النظريات العلمية (والدينية) للحياة • يبقى ما يدعى «تطبيقا»، وهذا ليس منشأن العلم ولا من شأن الفلسفة • انما هو من شأن الانسان الذي يصنع العلم والفلسفة معا • اذا كان تطبيق نظرية طبية معينة يعطي دواء يقضي على داء السل ، فهذا ، بدوره ، تطبيق لنظرة خلقية في اساس النظرة الطبية هي وجوب القضاء على داء السل • ما يبرر ابراز مادة كيميائية الى حيز الوجود من شأنها القضاء على السل هو ان هذا الداء يعذب المصاب به ويعطل فعاليته ويضعف امكاناته ويمكن ان يقضي عليه • هناك ، اذن ، فرضية بديهية او مقولة اساسية هي ان **الحياة قيمة** وان **استمرارها واجب** • القضاء على السل وسيلة **طبية** من وسائل استمرار الحياة • لكن ماذا عن اللجوء الى العنف ؟ هل هو وسيلة **اجتماعية** ؟ ولاية غاية ؟ ما هو التبرير الخلقي للعنف ؟

II - التفسير والتبرير

كلامي على الحياة لا يشمل سوى الحياة الانسانية • **كون الحياة قيمة** واستمرارها واجبا هو ، كما **قلت** ، امر **بديهي** لا يبرّر ، انما يبرّر . يجب الا نخلط بين التفسير Explanation والتبرير Justification . تفسير شيء ما هو تحليل هذا الشيء الى عناصره • نحن نفسر تكوين الماء حين نقول ان كل وحدة ماء مؤلفة من وحدتي هيدروجين ووحدة اوكسجين• ونحن نفسر الثورة الفرنسية حين ندرس عواملها الفكرية والاجتماعية والعسكرية وما الى ذلك • ونحن نفسر المسيحية حين ندرسها لاهوتيا • ما من سؤال تطرحه العلوم (والدين) وتجيب عليه الا وهو سؤال تفسيري • العلم تفسيري • الدين ، هو الاخر ، تفسيري • العلم يفسر سلوك المادة • الدين يفسر سلوك الروح • اما الفلسفة فتبريرية : انها تبرر هذا السلوك انطلاقا من الحياة التي هي وحدة المادة والروح • حين نفسر نسأل «كيف؟» و «ماذا؟» حين نبرر نسأل : «لماذا؟» • الفلسفة في عملها التبريري ، لا تكتشف عناصر Entities • العلم والدين ، وحدهما ، يكتشفان هذه العناصر ويفسران سلوكها • كل فلسفة تدعي انها تكتشف عناصر اولية هي فلسفة تخلط بين وظيفتها من ناحية ووظيفة العلم والدين من ناحية اخرى • وظيفة الفلسفة هي الكشف عن طبيعة التفاعل بين العناصر الاولية، اي المادة والروح ، وعن حتمية هذا التفاعل او عدم حتميته • بكلام اخر ، يمكن ان يتلخص عمل الفلسفة بما يسمى قضية « الواجب » و « الممكن » •

III - الممكن والواجب

يتسع هذا الموضوع حتى يشمل كل ما يمكن ان نسميه « فلسفة » ، لكني سسوف أحده لمقتضيات البحث الراهن •حين نتكلم على الممكن والواجب فنحن انما نبحث في الوجود وجوهر الموجودات • هناك اشياء وجودها واجب ، أي ضروري ، أي حتمي ، وهناك أشياء وجودها ممكن ، أي غير

ضروري ، أي غير حتمي · ثمة ثلاثة أنواع من الواجبات :

(١) الواجب « الانطلوجي » أي الوجودي ، (٢) الواجب الطبيعي ، و (٣) الواجب الخلقي · الواجب الوجودي هو الله ، أي الموجود الذي لا ينفصل جوهره عن وجوده · وقد أعطاه فلاسفة اللغة العربية الارسطيون اسم « الواجب الوجود » أو « علة العلل » · اذا تأملنا في الكون ، بما فيه الانسان والحيوان والطبيعة ، تبين لنا أن هذه الموجودات جميعا ليست ، في التحليل الاخير ، خالقة نفسها · بل ان عبارة « موجود » نفسها تشير ، وراء نفسها ، الى « موجد » · بهذا المعنى للوجود، تكون الموجودات المرئية محض ممكنة ، وتكون ، بالضرورة ، صادرة عن موجود يختلف عنها جميعا من حيث أنه واجب · أن يكون هناك موجودات (ممكنة) يعني أن ثمة موجودا (واجبا) هو في أساسها جميعا · النوع الثاني من الواجب هو الواجب الطبيعي · الحركة ، النمو ، تفاعلات العناصر ، نوازع النفس ــ هذه جميعا تدخل في نطاق الواجبات الطبيعية · لذلك يمكن القول ان الفيزياء وعلم الحياة والكيمياء وعلم النفس ، وكل ما ندعوه علما ، دراسة لنوع من انواع الواجب الطبيعي · عن أسباب معينة لا يمكن أن يصدر الا نتائج معينة·فمبدأ السببية او الحتمية هو المبدأ الذي تقوم عليه العلوم ، التي يمكن ان تعطى تحديدا شاملا على أنها تحليل للواجبات الطبيعية · الواجب الخلقي أو الانساني هو كل عمل ارادي من شأنه تحقيق سعادة الانسان ، في حين يمكن تأجيله أو عدم القيام به · هذا التحديد يعطي الاخلاق معنى واسعا جدا هو المعنى الذي يميز ما هو ارادي عما هو غير ارادي · ما من نظرية شاملة في الاخلاق الا وهي تنتمي الى أحد اتجاهين : الاتجاه الذي يقول بالقيام بالواجب من أجل ذاته ، أي لا لشيء سوى كونه واجبا ، والاتجاه الذي يقول ان من الواجبات ما هو غايات ومنها ما هو وسائل نتبعها من اجل تحقيق هذه الغايات · التحديد الذي أعطيته للاخلاق يتبع الاتجاه الثاني ، أي الاتجاه الغائي · أن تكون بعض الواجبات وسائل يعني أن ما هو صالح وخير في حد ذاته هو الغاية القصوى التي ينشدها الانسان ، وليس الوسائل التي تكفل تحقيقها · اذا كان من واجبات الموظف الحضور الى مركز عمله في الساعة الثامنة صباحا ، فهذا يعود الى نوعية العمل وتقسيم ساعاته · الغاية الاساسية هنا هي القيام بالعمل · قد يكون من الافضل ، تبعا لاسباب عديدة ، ان يبدأ العمل في السابعة او في التاسعة · بدء العمل في الساعة الثامنة ، اذن ، ليس شيئا صالحا في حد ذاته ، انما هو صالح كوسيلة ، أي أنه يستمد صلاحه من الغاية ومن المعطيات الطبيعية التي لها علاقة بالعمل ·

يوصلنا هذا الى ثلاثة استنتاجات حول الواجب الخلقي الذي هو واسطة أولا ، يدخل الواجب الخلقي في عداد الممتلكات من حيث كونه اختيارا بين أمرين أو أكثر · وهذا يبدو واضحا في المثل الذي أعطيته فوق حول ساعات العمل · ثانيا ، يدخل الواجب الخلقي في عداد الممكنات أيضا من حيث كونه قائما على الارادة · فالموظف الذي يبدأ عمله في السابعة أو الثامنة أو التاسعة يمكن الا يبدأ عمله في هذه الساعات أو الا يزاوله على الاطلاق · ثالثا ، يكتسب الواجب الخلقي امكانية تحقيقه من الواجبات الطبيعية · فبدء العمل في وقت معين يتبع ، عادة ، الاحوال الجغرافية في منطقة معينة · هذه الاستنتاجات ذات مبلغ كبير من الاهمية · فهي تثير قضية خلقية

اساسية هي قضية الحرية والحتمية • ان يكون الواجب الخلقي قائما على الارادة ، أي أن يكون ممكنا ، يعني أنه يتميز جوهريا عن الواجب الطبيعي • فهذا الاخير حتمي آلي ، ولا يمكن ، في أحيان كثيرة ، تغيير حدوثه • وحين يصبح تغيير حدوثه ممكنا ، يكون قد دخل نسبيا في حيز الارادة • من الامثلة على ما اعني المزارع الاصطناعية التي تقام في مناطق باردة لانتاج بعض محاصيل المناطق الاستوائية • التغيير هنا لا يطرأ على جوهر الواجب الطبيعي ، انما على تصنيع وسائل حدوثه • فثمار العنب تنمو طبيعيا في اقاليم مثل اقاليم البحر المتوسط ، او تحت زجاج مزارع اوروبا الاصطناعية• يبقى الواجب الطبيعي ، اذن ، قائما ، في التحليل الاخير على مبدأ السبب والنتيجة ، أي مبدأ الحتمية الآلية •

الشؤون الخلقية تختلف عن الشؤون الطبيعية من حيث قيامها على مبدأ الارادة أو الحرية • الارادة والحرية كلمتان ذات مدلول واحد • فحين نستعمل عبارة « الارادة الحرة » لا نكون قد اضفنا خاصة الحرية الى مبدأ الارادة • ما من ارادة الا وهي حرة بما هيتها • العمل الخلقي هو كل عمل حر ، أي كل عمل ارادي • وهو يكون جيدا أو سيئا تبعا لقيامه على الواجب او انحرافه عنه • العمل الخلقي الجيد هو العمل الذي يكفل تحقيق سعادة الفرد دون أن يسبب شقاء الآخرين • لذلك كانت الحرية الخلقية تختلف جوهريا عن المصادفة الطبيعية • فهذه الاخيرة ، اذا كانت موجودة على الاطلاق ، غير واعية وغير هادفة الى شيء ، في حين ان الاولى واعية وهادفة الى الحق والخير والجمال • هناك ، اذن ، حتمية في الاخلاق تتميز عن حتمية الطبيعة الآلية • في غياب هذه الحتمية تنحل الحرية الخلقية الى مصادفة طبيعية وينتفي مبدأ الصلاح أو الجودة أو الخير عن الافعال الانسانية • الحتمية الخلقية هي وجوب تحقيق الجيد والاجود ، والصالح والاصلح ، أو ، بكلمة ، تحقيق جودة الحياة •

يتبين لنا مما تقدم أن هناك ثلاثة مبادىء عملية هي **الخلق و الحدوث والفعل** • الخلق يصدر عن الله ، وهذا موضوع الدين • الحدوث يصدر عن الطبيعة ، وهذا موضوع العلم • والفعل يصدر عن الارادة الانسانية ، وهذا موضوع الاخلاق • الدين يفسر خلق العالم • العلم يفسر طبائع الاشياء وحدوث التفاعلات فيما بينها • الاخلاق ، من حيث هي علم السلوك ، تفسر طبيعة الخير وقوانينه • أما الفلسفة فهي ، كما قلت في بداية هذه الدراسة ، تبريرية• من هنا كانت فلسفة الدين تبريرا لوجوب خلق العالم، وفلسفة العلم تبريرا لوجوب التفاعلات،وفلسفة الاخلاق تبريرا لوجوب الافعال الصالحة• زيادة على هذا ، ان كل تبرير (فلسفي) هو خلقي بالضرورة ، والا كان محض تفسير • فاذا أخذنا فعلا معينا مثل جريمة قتل ، يمكننا تفسيرها على أسس فيزيولوجية ونفسية واجتماعية ، الا أن هذا كله لا يبررها خلقيا • نحن أيضا نفسر أحد أدوية السل حين ندرس تركيبه الكيميائي • لكن تبرير وجوده شيء آخر لا علاقة للمبادىء العلمية به • انه شأن خلقي ـ انساني •

قبل الانتقال الى الموضوع الرئيسي لهذه الدراسة ، وهو تبرير العنف، سوف اتوسع قليلا في طبيعة الافعال الخلقية • وآمل بهذا ، ان اكون قد بسطت من المقدمات المنطقية ما يكفي لدراستي •

IV - مبدأ الاهمية

ما الذي يجعل المرء ، وهو في صراع حول ما يفعل ، أن يختار « هذا » عوضا عن « ذاك »؟ ما الذي يجعله يضحي بأمر يرغب فيه لكي ينفذ أمرا ليس من الضروري ان يرغب فيه اكثر او ان تكون له رغبة آنية فيه ؟ لقد توسع الاخلاقيون في هذا الموضوع حتى أن بعضهم صور الاخلاق على أنها صراع بين « الرغبات » و « الواجبات » ، **وقالوا ان مقياس صلاح عمل ما هو ان** يكون هذا العمل منافيا للرغبة ، تابعا للواجب · وفي هذا المفهوم خطأ كبير للاسباب التالية :

اولا ، ليس هناك فرق في النوع بين «الرغبة» و «الواجب»· اذا كان علي أن أساعد معوزا في ظرف معين ، فما من مبدأ نفسي أو خلقي يحتم أن تكون رغبتي مختلفة عن واجبي · **ثانيا** ، يتحدد العمل الخلقي في تحقيق الواجب وليس ، بالضرورة ، **في صراع بين ما يدعى «رغبات» و «واجبات»** وكثيرا ما يقرر العمل الخلقي على أثر صراع بين مبادىء ندعوها كلها « واجبات » · **ثالثا** ، ليس هناك أي سبب يمنع اعتبار جميع نوازع النفس ، بما فيها الواجبات الخلقية ، رغبات · واذا كانت الاخلاق ، كما يرى بعض الفلاسفة ، **تحدد** بالصراع بين « الرغبات » و « الواجبات » فهذا يعني ان الواجب ، اي واجب ، لا اساس له في الطبيعة الانسانية لانه يفتقر الى رغبة من نوعه تدعمه وتحمل المرء على القيام به ·

هناك مثل ذائع للفيلسوف الفرنسي سارتر يعرض فيه حالة شاب في حيرة من أمره : هل يلازم والدته العجوز ، وهو وحيدها وهي بحاجة اليه ، أم يلتحق بمنظمة قومية ، هو عضو فيها ، ويغادر أمه · كثيرا ما تواجهنا حالات صراعية كهذه الحالة ، ولو كانت على درجات متفاوتة من التوتر · لكن هل نتبع الحل الذي يعطيه سارتر لهذه المسالة ، وهو أن الواجب ، في التحليل الاخير ، هو الفعل الذي يقوم به المرء للخروج من الصراع ، أيا كان ذلك الفعل ؟ لا اسلم مع سارتر بهذا الرأي ، اذ انه يفسح المجال لاي من رغبات النفس ونوازعها لكي تكون واجبا خلقيا · وهذا لا يقل خطأ عن النظرة التي تفرق عشوائيا بين الرغبة والواجب · أين نجد الحل اذن ؟ ولكي أعيد السؤال : « ما الذي يجعل المرء ، وهو في صراع حول ما يفعل ، ان يختار عوضا عن ذاك ؟ » هذا الحل ، اقول ، نجده في **مبدأ الاهمية** · ان نوازع النفس ـ سواء ما دعوناه منها « رغبات » وما دعوناه « واجبات » ، هي ، بكلمة ، «اهتمامات» · ان اهتم بأمر يعني ان هذا الامر هام او مهم · لذلك ، حين أكون في خوف على مصيره ، يأخذ اهتمامي شكل الانهمام · في حياة المرء ، أي مرء ، جملة من الاهتمامات الاساسية والاهتمامات المتفرعة عنها · هناك تسلسل في الاهتمامات ـ مقياس يتدرج من المهم الى الاكثر أهمية ، حتى الاهم · هذا المقياس يحدد للمرء مبادىء فعله ويعطيه القدرة النظرية ، حين يكون في صراع حول ما يجب فعله ، على الخروج من المأزق · وهو ايضا يحدد لنا كيفية اصدار الاحكام الخلقية · لنأخذ ، على سبيل المثال ، حالة شخص نزيل السجن بسبب مبادئه السياسية الفكرية التي لا تنسجم مع قوانين بلاده · هذا الشخص متهم ، بالطبع خلقيا ، اذ أن القانون جزء لا يتجزأ من الاخلاق · لكن الا يمكنه ان يبرر نفسه ، او يمكننا

تبريره ، على أساس خلقي أيضا هو أعلى من الاساس الذي أوجب اتهامه ؟ نعم ، هذا ممكن· وقد تكون حجتنا في هذا المجال ان الشخص المعني لم يعمد الى تعطيل مبدأ القانون بحد ذاته ، فهذا غير ممكن ، انما عمد الى اصلاح قوانين بلاده بما هو أفضل منها ·

الا أن مبدأ الاهمية الذي عرضته يقتضي ايضاحا اكثر · قلت انه بامكاننا اعتبار جميع الواجبات رغبات لكن العكس غير صحيح ، اذ ليست جميع الرغبات واجبات · فالواجب ، من حيث هو غاية ، هو تحقيق الذات ، ومن حيث هو وسيلة ، هو القيام بما من شأنه تحقيق الذات · لكن لا سبيل لنا الى الكلام على تحقيق الذات الا في نطاق الحقيقة التي تنتمي اليها الذات · فالذات هي الفرد · والفرد ليس شيئا ما لم تكن جماعة · الفرد ، بالتحديد، **عضو** في كيان يفوق محدوديته ويغدق عليه معنى الوجود والمصير· من هنا اقول ان الواجب الخلقي هو كل ما يكفل تحقيق هذه العضوية وتعميقها· هذا التحديد يخرج بعض الرغبات من نطاق الواجبات ، أي الرغبات التي هي نزوات قد تعطي متعة وقتية ، لكنها ، في السياق الطويل ، تضر بالفرد والجماعة · لذلك كان العمل الخلقي يقتضي تنقية الرغبات وتحويل ما يتحول منها الى واجبات ، اي الى مبادىء عمل ، والسيطرة على الرغبات الانانية· كلامي على الاهمية ، اذن ، يتناول الرغبات الطبيعية التي تحولت الى مبادىء عمل ، أي الى واجبات خلقية · سوف انتقل الآن الى معالجة الموضوع الاساسي : تبرير العنف ·

V - العنف واشكاله

كون العنف موجودا يدل على انه ظاهرة طبيعية · ونحن نلاحظ هذه الظاهرة على صعيدي الاحداث الطبيعية كالزلازل والفيضانات ، والافعال الانسانية كفورات الغضب بين الافراد والحروب بين الجماعات · الا ان كون العنف ظاهرة طبيعية لا يعني انه جيد او مستحب · فهو مخالف لقوانين النموالطبيعي ، لانه غالبا ما يقطع استمرار الحدث بالقضاء على الشيء الذي يطرأ عليه الحدث · لذلك كان العنف ، على كونه طبيعيا ، ظاهرة غير صالحة من حيث المبدأ ، وتوجب علينا تجنبه · لكن بما ان الطبيعة غير العاقلة لا يمكنها ان تهدف الى شيء او تتجنب شيئا ، كان من الخطأ اعتبار ما ندعوه « كوارث طبيعية » في عداد ظواهر العنف · فلكي نعالج ظاهرة العنف بدقة ، علينا ان نقصر كلامنا على الطبيعة العاقلة ، أي على العقل والارادة ، اي على الانسان ·

يمكننا تمييز ثلاثة اشكال من العنف : (١) العنف الفكري ، (٢) العنف الفردي ، (٣) العنف الجماعي ·

أ ــ العنف الفكري : من مظاهر العنف الفكري التشبث بالرأي ، والسلطان ، والدوغماطيقية ، ورفض آراء الاخرين ، والتهجم اللاذع على المعتقدات الاخرى من سياسية ودينية وادبية · وكثيرا ما نقع على امثلة من هذا النوع من العنف في الندوات الشعبية والصفوف المدرسية وبعض الكتب والصحف ، وفي احاديث الناس العامة · هذا ناقد ، مثلا ، يكتب في صحيفة

ان الكتاب الفلاني يجب الا يقرأ لان فيه ما يضلل القراء ، وان الاغنية الفلانية مسروقة ، وان الدين الفلاني يحث اتباعه على التمييز العنصري • فهل هناك ما يبرر لجوء الكاتب الى اللهجة القاسية في نقده ؟ بكلام اخر ، هل يمكن اعتبار العنف ، كما عمد اليه الكاتب ، واجبا خلقيا بمعنى انه لا يمكن اللجوء الى سواه ؟ هناك حالة ، على الاقل ، لا يمكن تبريرها في هذا المجال ، وهي جهل الكاتب او عدم اطلاعه الكافي على المعلومات والمقومات الضرورية لبحثه • ان حالة كهذه ، ولو كان لها تفسيرات وافية ، لا يبررها شيء حتى غاية الكاتب النبيلة • فللجهل في هذه الحالة تفسيرات تربوية ، لكنه ، في جميع الحالات ، يفتقر الى مبرر خلقي • من هنا يمكن الحكم على بعض الكتابات الدينية في العصر الوسيط على انها سيئة خلقيا لعدم اطلاع كتابها اطلاعا كافيا على العقائد التي حاربوها بقسوة ، او لعدم تفهمهم حقيقة الاديان الاخرى • هناك حالة اخرى من العنف الفكري ليس لها تبرير خلقي ، وهي الحالة التي يعتمد فيها الكاتب العنف لغاية سلبية غير نبيلة ــ لانه يكره صاحب العمل المنقود او يحسده او يعاديه على اساس مبادئه•لهذه الحالة ايضا تفسيرها السيكولوجي ، لكنها تفتقر الى مبرر خلقي • حالة ثالثة من العنف الفكري ليس لها تبرير خلقي ، هي الحالة التي يلجأ فيها الكاتب الى العنف كغاية في حد ذاته ، اي لا للبناء ولا للهدم • التفسير السيكولوجي ، هنا ايضا ، لا يوجب التبرير الخلقي • وهذه الحالة ، مع الحالة السابقة ، يعبر عنها في المنطق بالعبارة اللاتينية argumentum ad hominem • اي نقد الشخص عوضا عن نقد افكاره •

ثمة حالة رابعة من العنف الفكري لا تبرر ، رغم اطلاع الناقد على ما ينقده ونبل غايته ، وهي الحالة التي يمكن فيها تحقيق الغاية عن غير طريق العنف • من الامثلة على هذه الحالة توجيه عبارات قاسية الى كاتب او فنان ناشىء على اساس نشر عمل يفتقر الى بعض المقومات الفنية • فقد تكون لدى هذا الفرد موهبة اصيلة يمكن ان توجه في طريق صالحة بواسطة الاقناع المنطقي • وقد يكون في اعتماد العنف حائل دون نمو هذه الموهبة• ثمة حالة واحدة ، اذن ، يبرر معها العنف الفكري ، وهي عندما يكون ضرورة محتومة ، اي عندما تعلمنا التجربة ان الوسائل الاخرى لا تجدي• لنأخذ على سبيل المثال مؤسسة اجتماعية اعلامية ، كالاذاعة ، تحارب ادباء وفنانين كبارا ، بعدم ايصال اصواتهم الى المتذوقين ، تبعا لاسباب لا تمت الى الادب والفن بصلة • ان مسؤولية الناقد الاصيل تحتم عليه محاربة هذه المؤسسة عن طريق القسوة حين لا تجدي سواها من الوسائل • فالقضية هنا قضية مسؤولية اجتماعية تتعدى العداءات العقائدية والكسب الشخصي • انها قضية دفاع عن قيم المجتمع الباقية • نستخلص مما تقدم ان العنف الفكري لا يبرر خلقيا في الحالات التالية : عدم نبل الغاية ، اعتماد العنف غاية في حد ذاته ، جهل معطيات القضية جزئيا او كليا ، وامكان تحقيق الغاية النبيلة عن غير طريق العنف • لكنه يبرر عندما يصبح واجبا ، اي امرا محتوما •

ب ــ العنف الفردي : من مظاهر العنف الفردي اللجوء الى الضرب او القتل • يبرر هذا الشكل من العنف ، كما يبرر اي عمل ، عندما يكون واجبا محتوما • فالقتل الذي يحصل اعتداء على الاخرين ليس له تبرير خلقي ، ولو كانت له تفسيرات نفسية واجتماعية • والضرب الذي يحصل

لفض جدل فكري او عقائدي هو ، بعد القتل ، اسوأ اشكال السلوك لانه يصدر عن تعطيل فعالية العقل • هناك ضرب الاحداث في البيوت والمدارس، وهو طريقة تربوية قديمة ، ما يزال بعض الاهل والمربين يلجأ اليها• الضرب كوسيلة تربوية ، يهدف الى تعليم الولد واجباته وتوعيته عليها • لكن يجب الا تحل هذه الوسيلة محل التعليم الطبيعي الذي يحصل عن طريق الاقناع والدليل المنطقي • وربما كانت حكمة داود « لا تمنع العصا عن ولدك فتؤدبه » صائبة ، لكني اضيف اليها : « حين لا يجدي لسانك » • واستثني من هذا الشكل من العنف ضرب الاولاد المتخلفين عقليا لانه ، في كثير من الاحيان ، لا يجدي ، بل يصدر عن موقف يائس او عن عدم فهم للامور • فالافراد المتخلفون عقليا هم ، كما اعتقد ، الحالة الوحيدة في حياتنا الانسانية ــ الخلقية التي لا تتفاعل فيها الحقوق مع الواجبات • ان للمتخلف عقليا حقا علينا لا يقابله حق منا عليه • اما القتل ، فهناك شكل واحد منه له تبريره الخلقي ، وهو القتل الذي يحصل دفاعا عن النفس • في رأس الواجبات الخلقية الحفاظ على الحياة واطالة مدتها ما امكننا ذلك • (من هنا اقول ان الانتحار سيىء ، اي انه لا يبرر خلقيا) • هذا المبدأ الطبيعي يبرر حتى المجرم الذي يقتل مطارديه • فالحياة لا يمكن ان تكون قيمة خلقية ما لم تستمر طبيعيا او بيولوجيا • نستخلص من هذا ان العنف الفردي ، من حيث انه ظاهرة حاصلة ، له تفسيراته النفسية والعقلية والاجتماعية ، لكنه لا يبرر خلقيا الا عندما يكون واجبا • والتجربة هي التي تعلمنا اين وكيف يتحتم علينا اللجوء الى هذا الشكل من العنف • فالضرب واجب تأديبي حين لا يجدي سواه من الواجبات • والقتل واجب دفاعي فقط •

ج ــ **العنف الجماعي** : من مظاهر العنف الجماعي الثورات والحروب• وتدخل في هذا النطاق من العنف احكام الاعدام وحجب عضوية بعض المؤسسات الاجتماعية او كلها عن الفرد • والسؤال نفسه ، حول اي تبرير ، يطرح في هذا المجال من التبرير : هل من وجوب خلقي ، حتمي ، غير مردود ، للعنف الجماعي ؟ والجواب النهائي ، هنا كما في اي نطاق، يأتي عن طريق التجربة ، او عن طريق البرهان العقلي المدعوم بقرائن تجريبية • ان المؤسسات الاجتماعية وجدت لكي تضمن استمرار الامة (اي الشعب وارضه وحضارته) ، ولكي تتيح استمرار الافراد وتحقيق ذواتهم• الغاية الاساسية للمؤسسات الاجتماعية ، اذن ، هي ، كما رأى افلاطون في « الجمهورية » ، حفظ العدل وردع الظلم • انطلاقا من هذا المبدأ ، نجد تبريرا للثورات والحروب حتى في الفلسفات المسيحية كفلسفة القديسين اوغسطين وتوما الاكويني • فهما يبرران الثورة والحرب حين تقومان على سبب عادل هو دفع الظلم واقامة العدالة • وتتجلى دوافع الحرب الحقيقية، اكثر ما تتجلى ، في ما يلي الحرب : فاقامة السلم العادل شيء ، والانتقام الارهابي شيء اخر • هنا ، كما في العنف الفردي ، يقوم التبرير على مبدأ الدفاع عن النفس واستمرار الحياة • ان كل ما يهدد استمرار الحياة ــ سواء اكانت حياة الفرد ام حياة الجماعة ــ رديء ، والقضاء على اسبابه واجب • الا نتعلم من الطبيعة غير العاقلة هذا المبدأ حين نرى جذوع الشجرة وقد فتتت الصخور ؟

VI - الثورة والمسؤولية

لكن ثمة مشكلة تواجهنا ونحن نبحث في هذا الشكل من العنف : ماذا عن الابرياء الذين تقضي عليهم الثورة او الحرب ؟ لقد كثر الكلام في ايامنا هذه عن « الثورة » و « الثورية » و « العنف » و « العنف الثوري » والادب الذي لا يكون « ثوريا » ما لم تجلجل فيه اصوات المدافع ٠ الا ان كثرة الكلام ليست دليلا على صحته ومسؤولية قائليه ٠ في كتابات عديدة حول الثورة ووجوب تحقيقها ، نقرأ ان الثورة محتومة وان العنف هو السبيل الوحيد الى تحقيقها ٠ وعلة هذه الاراء ان مطلقيها لم يدققوا في معنى الثورة واهدافها الاساسية لانهم لم يضعوها في سياقها الطبيعي ٠ ومن العلل الناجمة عن آراء غير واضحة وغير مسؤولة كهذه ان الغامة اليائسة من واقع حالها تتبناها وتتمسك بها كحبل رجاء ، تاركة مسؤولية الرأي على مطلقيه ٠ من هنا يحضرني الغزالي في اقتراحه « لجم العوام عن علم الكلام » ٠

قلت في بداية هذه الدراسة ان ميزة الحياة الاساسية هي الاستمرار٠ لذلك كان واجب الانسان الاساسي تحقيق جودة الحياة في الاستمرار ، اي تحقيق الاستمرار والجودة معا ، اي تحقيق الاستمرار الصالح ٠ فالعنف ليس واجبا من حيث المبدأ ، لانه ليس القاعدة التي تضمن الاستمرار ، ولان النتجة التي تنجم عنه قد تكون قطع الاستمرار ، اي استئصال الحياة ، لكن العنف يكون واجبا احيانا ، وهو يبرر في هذه الاحيان فقط ، اي عندما يكون وسيلة غايتها تحقيق جودة الحياة ٠ ثم ان الثورة لا تستوجب العنف المادي بالضرورة ، ولو كانت قائمة على بعض اشكال العنف الفكري ، في اولها العنف مع الذات ٠ الثورة هي الرجوع الى العقل ، والمحاربة من اجل الرجوع الى العقل ، حين يطرأ انحراف معين على الناس يشط بهم عن طريق العقل القويمة ، او حين تتجمد حضارة معينة في اطر شكلية مغلقة من العادات والتقاليد ٠ الثورة في اساسها ، اذن ، حالة فكرية ــ روحية قبل ان تكون اي شيء اخر ٠ انها حالة وعي دائم لماهية الحياة : الكون والذات والمجتمع ، حالة تحضر وتأهب لاحلال سلطان العقل محل كل ما من شأنه ان يعطل فعاليته ٠ لذلك كانت الثورة تقتضي ، اول ما تقتضي ، وضوح الهدف للثائرين ٠ ووضوح الهدف يعني الوعي التام لغاية الثورة ووسائلها وكل ما يتعلق بها من امور ٠ وبما ان العنف المادي خطر بحيث يمكن ان يؤدي الى تعطيل حياة بعض الافراد ، كان من واجب الثائرين عدم اللجوء اليه الا عندما يكون محتوما ٠ الثورة ليست خلقا من عدم ٠ ما من عمل انساني هو خلق لشيء من لا شيء ٠ فكما ان الشجرة التي يبست ومات بذارها لا تقوم من الموت ، هكذا لا يقوم الانسان الميت ٠ المزارع لا يضع سمادا للشجرة التي ماتت وتأكد له موتها ، انما للشجرة الضعيفة لكي يعطيها اسباب حياة اقوى واجدى ٠ الغاية هنا تقوية الشجرة ، تحويلها الى واقع افضل ، وليس القضاء عليها ٠ وهكذا تكون الثورة : عملا على تحويل شعب من حالة انحطاط روحي الى حالة ازدهار روحي ٠ وشتان ما بين تحويل مجرى النهر وقطع مائه ، ما بين الاحياء بغنى والافناء ٠ يتبين لنا مما سبق ان الثورة عملية شاقة ، في رأس مقتضياتها وضوح الهدف للثائرين ٠ ونحن لا نعدو الحق اذا قلنا أن الثورة ، بمعنى عميق للكلمة ،

هي الثائرون انفسهم بما يجسدون من مناقب · ولنا من ثورة يسوع المسيح اكبرشاهد في التاريخ على كيفية تجسيد الثائرين لايمانهم · « واما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات · فاني اقول لكم ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات » · (متى ٥ : ١٩ ــ ٢٠) · « ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لانكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة · ايها الفريسي الاعمى ، نق اولا داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما نقيا ايضا » · (متى ٢٣ : ٢٥ ــ ٢٦) · « هذا الشعب يكرمني بشفتيه ، واما قلبه فمبتعد عني بعيدا » · (مرقس ٧ : ٦) · « افتسخطون علي لاني شفيت انسانا كله في السبت ؟ لا تحكموا حسب الظاهر ، بل احكموا حكما عادلا » · (يوحنا ٧ : ٢٣ ــ ٢٤) · اجل ، فان ابن الانسان هو « رب السبت » ايضا ·

وهذا بولس الرسول يفلسف ، في رسائله جميعا ، الثورة المسيحية: ثورة المحبة العقلانية التي هي « جدة الروح » ، على الناموس الذي هو « عتق الحرف » : « ان كنت اتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة ، فقد صرت نحاسا يطن او صنجا يرن ··· وان اطعمت كل اموالي وان سلمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة ، فلا انتفع شيئا· المحبة تتأنى وترفق · المحبة لا تحسد · المحبة لا تتفاخر ، ولا تنتفخ ، ولا تقبح ، ولا تطلب ما لنفسها ، ولا تحتد ، ولا تظن السوء ، ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق » · (١ كورنثوس ١٣ : ١ ــ ٦) · ويمثل بولس على قدوة الثائرين بقوله : « لانه ان رآك احد ، يا من له علم ، متكئا في هيكل وثن ، افلا يتقوى ضميره ، اذ هو ضعيف ، حتى يأكل ما ذبح للاوثان ، فيهلك بسبب علمك الاخ الضعيف الذي مات المسيح من اجله ؟» (١ كورنثوس ٨ : ١٠ ــ ١١)·

ما تقدم كان ايضاحا للسؤال المطروح فوق : « ماذا عن الابرياء الذين تقضي عليهم الثورة او الحرب ؟ » وكان لا بد من هذا الايضاح لكي يتبين لنا معنى الثورة الحقيقي ــ انها ، في جوهرها ، لا تقتضي العنف المادي انما تحاول وقفه لانه قد يؤدي الى استئصال اسباب الحياة · اما ان يكون العنف المادي حاصلا في بعض الثورات ، فهذا ، في ذاته ، لا يبرره على الاطلاق· وكم من ثورة في التاريخ انحرفت عن مجراها الحقيقي ، وتحولت الى نار تلتهم نفسها ، باعتمادها هذا الشكل من العنف · الا ان العنف المادي قد يرافق ثورة ما ويكون له تبريره ، وذلك عندما يكون الوسيلة الوحيدة لوقف اقتتال او لضمان سلامة المجتمع · وتبقى مسألة الحكم الخلقي على هذا الشكل من العنف ، وهي على مقدار كبير من التعقيد · فهناك اسئلة كثيرة تطرح في هذا المجال ، وكل منها يشكل موضوعا للبحث · وسوف اكتفي بطرح اثنين من هذه الاسئلة دون الاجابة التفصيلية عنهما ·

اولا ، هل نعتمد حكم صاحب الفعل ام حكم المراقب ؟ فهناك مفارقة بين حكمي انا على افعالي وحكم الاخرين على هذه الافعال · فانا ، حين احكم ، ألجأ الى النية والهدف ، اما الاخرون فيحكمون على الظاهر ، اي على بعض النتائج · (هذا يذكرنا بقول المسيح : « لا تحكموا حسب الظاهر، بل احكموا حكما عادلا ») · وانا ، حين احكم على فعل من افعالي ، انظر

اليه في ضوء افعالي السابقة واحاول تبريره اعتمادا على مبدأ الاهمية ٠ اما الاخرون فغالبا ما يقطعون الفعل المنظور في امره عن سواه من الافعال ويحاولون الحكم عليه بتجريد عن سياقه المنطقي ٠ سبب هذه المفارقة بين حكم الفاعل وحكم المراقب ان من يعمل ليس كمن يراقب ٠ الا ان الحكم على النتيجة امر لا مفر منه ٠ فالنيات لا تعبر عن نفسها الا في الافعال الظاهرة٠ وليس من سبب جيد وراء القول ان ذا النية الصالحة قد يخفق دائما ، او معظم الاحيان ، في اظهار نيته بواسطة افعاله ٠ هذا امر غير واقعي ، والايمان به يقود الى تعطيل سلامة المجتمع ٠ ولكي نجد مخرجا لهذا المأزق في الحكم الخلقي علينا ان نتعمق في دراسة طبيعة المجتمع وتكوينه ٠ فالمجتمع لا يمكن ان يحافظ على سلامته ما لم تحل الثقة والارادة الصالحة لدى أفراده ٠ هذا يعني ، مما يعنيه ، أن على قادة الرأي ، أي المعبرين عن الرأي ، في مجتمع ما ، أن يوضحوا أفكارهم وأهدافهم ٠ عندئذ لا تبقى النيات أفكارا ومشاعر مغلقة في غياهب الوجدان ، انما تبرز الى النور وتصير أفكارا وأهدافا مشتركة بين أبناء المجتمع الواحد ٠

ثانيا ، على من تقع مسؤولية الابرياء الذين قد تقضي الثورة عليهم؟ هذا السؤال مهم لانه يثير احدى قضايا الاخلاق التقليدية ، وهي قضية « المسؤولية الجماعية » ٠ من المفكرين من ينكر وجود هذا النوع من المسؤولية ، انطلاقا من اعتقادهم أن الفرد حر ، وأنه ، وحده ، يسأل ويحاسب على أفعاله ٠ هذا ، في رأيي ، صحيح الى حد ، لكنه لا يعني، بأي شكل ، انتفاء « المسؤولية الجماعية » ٠ فالمسؤولية ، بالمعنى الاساسي للكلمة ، هي الواجب ٠ أن أكون مسؤولا عن أمر ما يعني أن تحقيق هذا الامر واجب علي ٠ ونحن ، حين نبحث في اهداف الثورة ، لا نبحث في واجبات فردية ، بل في واجبات تترتب على كل فرد من حيث كونه عضوا في مجتمع ٠ لذلك كانت المسؤولية الثورية، أي الواجب الثوري، مسؤولية جماعية ، أي واجبا جماعيا ٠ في بحثنا بهذا النوع من المسؤولية تنتفي مشكلة « الابرياء » ، ويصبح السؤال سؤالا باطلا ٠ فمن لا يدرك الهدف ، من لا يدرك طبيعة الوجود الانساني ، يعد « مغفلا » وليس «بريئا»٠ يبقى النوع الاخر من المسؤولية ، وهو مسؤولية الافراد في تنفيذ المخططات الثورية ٠ هنا تتوزع المسؤوليات على الافراد تبعا لتوزيع الاعمال ٠ لكن معنى المسؤولية لا يتغير في هذه الحالة ٠ فالمسؤولية هي الواجب ، ولو كان ، في هذه الحالة ، يشير الى الوسيلة لا الى الغاية ٠ فاذا كان اللجوء الى العنف المادي واجبا ، فهو لا يخرج ، من حيث تبريره ، من نطاق الواجب الجماعي ٠ لأنه اذ تنتفي اجتماعيته ، ينحط عن مستواه الحقيقي الى التعبير عن فردية أنانية ، وينتفي مع هذا تبريره الخلقي ٠ كيف نجيب، اذن، عن السؤال المطروح ، وهو تحديد مسؤولية الثائرين في القضاء على بعض الابرياء في سياق العمل الثوري ؟ لقد حاولت معالجة القضية من حيث المبدأ ٠ وأضيف أن الحكم على ثورة ما — وهو أمر مركب ومعقد — لا يمكن أن يكون حكما اجماليا مبرما ٠ فللثورة مراحل ، وللثورة أهداف ووسائل،

وللثورة من قد يستغلها من أجل مآرب فردية ، وللثورة موجهون قد يكونون ذوي قصر نظر في بعض المسائل • لذلك كله كان الحكم على الثورة أحكاما على كل من هذه المسائل • والتعميم في حالات كهذه أمر خطر • أما الاحكام التفصيلية فتحتاج الى تفسير وتعليل وتبرير ، هي من واجبات الذين يؤرخون للاحداث • تبقى قضية الحرب • والحرب ــ على انتشارها ــ حالة استثنائية من حالات العمران الانساني • ولا يمكن اعتبارها حالة أساسية لانها قد تقضي على العمران • ان الحرب ، كما قلت ، تبرر حين تقوم على أساس عادل هو محافظة الشعب على كيانه ، أي على أسباب حياته ، أي على أرضه وحضارته المتفاعلة مع هذه الارض • هنا أيضا ، كما في الثورة ، يتفرع الحكم الخلقي ــ التبريري الى أحكام متعددة • ويبقى التدقيق في هذه الاحكام على عاتق من يؤرخ للاحداث •

VII - خلاصة

لا يمكن ولوج أي موضوع الا من خلال الاطار الذي ينتمي اليه • على هذا الاساس جاءت دراستي في تبرير العنف تحليلا لذاك الاطار الواسع من حياتنا الانسانية ــ الخلقية الذي يحتم اللجوء الى العنف • ثمة من الواجبات أي الامور المحتومة ، ما هو طبيعي وما هو خلقي • الواجب الانساني هو الواجب الخلقي عينه ، لانه يحقق جودة الحياة في الاستمرار• لذلك كانت السيطرة على الواجبات الطبيعية ، وتسيير هذه الواجبات اراديا حين يكون هذا الامر ممكنا، فرضا خلقيا محتوما • من هنا يمكن اعتبار الرغبات الطبيعية أمرا اراديا حين يحولها الحس الانساني الاصيل الى واجبات خلقية • ومن هنا أيضا يمكننا اعتبار الصراع الخلقي صراعا بين واجبات • وصراع الواجبات يحله مبدأ الاهمية • لكن الواجبات الطبيعية تفسر علميا ، ولو كان تحقيقها داخلا في حيز الارادة • والتفسير العلمي ، كما مر معنا ، لا يعني التبرير الخلقي • لذلك كانت التفسيرات النفسية والاجتماعية والتربوية لظاهرة كظاهرة العنف المادي لا توجب تبرير هذه الظاهرة خلقيا • علينا ، اذن ، التمييز بين العنف كظاهرة مرضية ، أي كغاية في حد ذاته ، والعنف كشأن خلقي ، أي كوسيلة محتومة للقضاء على ما يهدد سلامة الحياة واستمرارها وجودتها • ان العنف سيىء من حيث المبدأ ، لانه ، في محاولته اصلاح حدث ما ، قد يقضي على الشيء الذي يطرأ عليه الحدث • (هذا يفسر قولنا ان الثورة تخون نفسها أحيانا) • العنف الذي يبرر تكون غايته ، دائما ، اصلاح حالة معينة ، أي اصلاح مبادىء وليس ابادة أصحابها • لذلك كان العنف الاساسي الذي يبرر هو العنف الفكري ــ الروحي ، العنف الذي هو حالة نقاء نفسي وأهداف سليمة واضحة • أحيانا ــ كما في الثورة والحرب ــ يكون العنف ماديا • وهذا يبرر عندما يكون واجبا لا مفر منه ، أي عندما

يكون وحده الذي يوقف اقتتالا ويحقق سلما ويقيم عدلا · ويجب ألا ننسى أن الانتصار في الثورة والحرب ليس انتصارا على أشخاص · فالشخص ، مهما شطت به فوضى الاراء، له في النهاية من عقله ، من فطرته وطبيعته الاساسية ، ما يهدي الى الطريق القويم · الانتصار في الثورة والحرب هو انتصار مبادىء الخير في الذات وفي المجتمع ·

تبقى كلمة · كانت هذه الدراسة ، على طولها ، مقتضبة نوعا ما· فهي قد طرحت قضايا ذات علاقة وثيقة ببعضها بعضا ، لكن كلا منها يمكن ان يكون موضوعا لبحث مفصل · الذين يتوقعون أن تكون الاجابة عن سؤال كهذا السؤال ، تبرير العنف ، بنعم أو بلا ، سوف يخيب ظنهم بهذه الدراسة· لكني ، بكل اصرار ومسؤولية وارادة صالحة ، لا أكتب لهذا النوع من القارىء · ان الكتابة الاكاديمية في موضوع خلقي لهي عمل خلقي بالمعنى الاساسي العميق للكلمة · ومن مسؤوليات الفيلسوف توضيح موضوع بحثه وفضح الاراء السطحية التي تبتلى بها الحضارات · ولا أدعي أني قد أجبت عن جميع الاسئلة التي طرحتها · لكن طرح الاسئلة ليس بالعمل السهل · انه من جوهر الفلسفة · وحسبي بهذا أني قد ركزت قضية العنف وتبريره في اطارها الصحيح · ذلك أن غاية حياتنا هذه أن تستمر ، وأن تستمر في الحق لا في الباطل · يبقى العمل للعاملين · والعمل الذي لا يقوم على أسس ومبادىء قويمة هو شأن اعتباطي ولو أعطى بمحض المصادفات، نتائج ايجابية الى حين · انه ، في النهاية ، يحول الناس الى وسائل ويقودهم ، في وقت من الاوقات ، الى الفناء · رأس الواجبات الخلقية معرفة الذات والعمل بهذه المعرفة · عندئذ تكون لنا الحياة ، وتكون بغنى ·

اديب صعب
(بيروت)

الهام كلاب

العنف كبنية اجتماعية :
وضع المرأة اللبنانية ، في منطقة الهرمل

1

اذا نظرنا الى القطاع النسائي في منطقة الهرمل ، وجدنا بانه قطاع لم يكن له حساب الا عدديا ، وهو في محيط يحاول النمو كاكياس رمل معلقة بأرجل المجتمع ، وعلى عاتق الرجل اذا لم تتسلم المرأة مسؤولية نفسها فتواجه مشاكلها كقطاع يحتاج الى انماء وتواجه مسؤوليتها كشخص مسؤول عن التنمية ابتداء من الاختبارات البسيطة اليومية ، حتى الاختبارات المصيرية .

هنا اتوقف امام ملاحظتين اساسيتين :

اولا ــ ان كلامنا على المرأة لا يعني بانها الضحية الوحيدة ، وبأن الرجل قد ادى دوره او توافق مع هذا الدور ، فما دام الرجل يجاور في كل نطاقات معيشته ، وعلى مدى مراحل عمره ،هذه المرأة المسحوقة ، سواء كانت اما او اختا او زوجة او بنتا ، فهو مسحوق معها . وعملنا على تحرير المرأة عمل لتحريره هو معها ، ولاطلاقه من القمقم الذي يحبسهما معا ، ومتى حكمنا على تقدم امرأة في منطقة ما ، فقد اهتدينا الى مقياس تقدم المنطقة الكلي .

ثانيا ــ اناعتبار مشكلة نمو المرأة ودورها الانمائي حلقة من ضمن حلقات الانماء المتوازية والمساوية لغيرها ، واعتبار حلها حلا من ضمن الحلول الجذرية المطروحة ، يبتعد بقضيتها عن الترف الفكري غير الملزم ، وعن عمل الجمعيات الخيرية لتصبح من صميم المجتمع بابعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وهكذا فان كل عمل انمائي يبقى مجرد جهود ضائعة وتبقى المرأة مجرد

وجود اتكالي موزع ورأسمال غير مستثمر ما لم تسهم حقا في عمليات الانماء المتعددة ، حيث يؤدي تكاملها الشخصي في التنمية الى ازدياد فعاليتها ·

ان تشخيص صورة المرأة الهرملية اليوم يؤدي بنا الى تساؤلين يشكلان قسمي الموضوع :

أ ــ ما هي العقبات التي تسجن المرأة الهرملية في سلبيتها الحالية كمواطنة لها دور انمائي مجمد ؟

ب ــ ما هي الاجراءات والتطلعات التي تطلق المرأة الى ايجابية مستقبلية مبدعة ، فاعلة ، تجعلها مسؤولة جنبا الى جنب مع الرجل عن انماء محيطها ؟

وهذا التشخيص يطرح بدايات ونقاطا واستنتاجات ،اعتبر بانها سريعة وتمهيدية بسبب الفقدان الكلي للمراجع · فالارض بور في هذا المجال · فكل ما كتب عن الهرمل عامة ، لا يتعدى عدة مقالات صحفية وابحاث قصيرة قامت بها جمعيات تهتم بالعمل الاجتماعي ،كانت المرأة فيها شبحا ليس له وجه، لا يتنفس ولا يعيش · وليس فقدان اي مرجع عنها هو دلالتنا الوحيدة على تدني وضعها ، وعلى غياب دورها · فالواقع يطرح صورته بوضوح وقسوة، تلتقط بالملاحظة في حال فقدان الارقام · وكان لقضائي مرحلة من الوقت في الهرمل ، والتقائي المتواتر بعدد متنوع من النساء والرجال والفتيات مهمة التعريف الحياتي التي ، وان كانت غير كافية فهي ليست سوى مقدمة وخطوة تجب متابعتها والتحقق من نتائجها ·

هذا من ناحية المراجع الكتابية والملاحظة الحياتية ، اما من ناحية الارقام فكان الاعتماد على الاحصائيات التي تذكر حالة الرجل والمرأة في الهرمل · وبما ان مسافة التخلف بين المرأة والرجل ليست هائلة وكبيرة ، وبما انهما يتغذيان من الجو ذاته ويخضعان لضغوط متشابهة،فقد اضطررنا الى الاهتداء الى الرقم النسائي بالمقارنة ، وبالتنقيص التقريبي ·

لكن من هي بالتحديد امرأة الهرمل ؟

مهما كان التركيب الاجتماعي بدائيا وغير معقد في الهرمل ، فان التناقضات الاجتماعية هنا عامة وتنطبق على المرأة · فالنساء في الهرمل لا تنتمي الى طبقات ، بل تنقسم الى فئات وانتماءات · **فجغرافيا** : هناك امرأة البلدة ، وامرأة الجرد والسهل ، وتنعكس العصبية الموجودة بين اهل البلدة واهل الجرد على الفروق الموجودة بين نسائهن · **وطبقيا** ، هناك المرأة الغنية والمتوسطة والفقيرة ، مع ما يفترض هذا الانتماء من محافظة او انطلاق او تحرر · **وثقافيا** ، هناك المرأة المتعلمة التي تختنق علميا او تنزح لآفاق أوسع ، وهناك المرأة الامية التي تربي أجيالا جديدة او تهجر المنطقة لعمل يدوي أربح · **واقتصاديا** ، هناك المرأة المرتبطة اقتصاديا بمعيلها ــ ولو كانت منتجة ، وهناك المرأة الحرة اقتصاديا التي تستطيع تقرير زواجها · **واجتماعيا** ، هناك المتزوجة المرتبطة بزوج واولاد وواجبات منزلية والتي حلت مشكلتها تقليديا ، وهناك الفتاة العازبة التي تعاني حتى القهر

واليأس من وضع غير طبيعي تعي ضرورة تبديله .

ويرتبط هرم الاعمار بهذا الانتماء بطريقة بديهية. ان كل هذه الانتماءات يحصل بينها تقاطع والفة ، وتتأرجح بين قطبي التحفظ الاضطراري وبين البقاء في الهرمل او النزوح عنها . وتحمل بعض الصفات الافرادية وبعض الامتيازات ، لكن الفرق بينها ليس صارخا لان الضغوط الاساسية تصبغ كل الفئات بصبغة واحدة يتساوى فيها **الاضطهاد الاجتماعي ـ الجنسي** الملحق أساسا بكل امرأة . سترسم هنا اولا خريطة للوجود النسائي في الهرمل نتوقف من خلالها على المحطات ـ العقبات ـ التي تجعلها سلبية الدور ، حارسة للتقاليد التي تضطهدها ، ومدافعة عنها ، معدومة التأثير على تطور مجتمعها وانمائه . وهذا الوضع يجب ان يواجه بصراحة وشجاعة لكي يشكل الخطوة الانمائية الضرورية الاولى ، والا فقد البناء الانمائي جذوره الصحيحة ، لانه يسكت عن الهزة الاساسية ويتنازل عنها لاعتبارات تقليدية وغير علمية .

العائلة

اول مؤسسة تصطدم بها المرأة هي العائلة (بمفهومها الواسع في بلدة الهرمل) والعشيرة (في الجرود) وهي اخطر واصعب عقبة تواجهها وتواجه الرجل أيضا . والعائلة هنا ـ (عندما نقول العائلة نعني كل تجمع على أساس عصبي عرقي) ـ لا تزال تحتفظ بالمفهوم الابوي الهرمي للعلاقات الانسانية ، والمعروف في المجتمعات الزراعية . وهي بحكم علاقتها بالطبيعة وبحكم عزلتها ، تحاول تأمين التضامن حولها او حول زعيمها الذي يمثل وحدتها . وهذا البناء الاقتصادي الاجتماعي يفرز عقلية وممارسات عصبية، كالثأر واستقواء القوي على الضعيف ، والمتنفذ على القوانين ، والتباهي بالامتيازات ، والاستزلام ، **والمصالحات على حساب المبادىء والقوانين** . وفي دراسة **لجوزف كامل** يظهر ان المجتمعات غير النامية تمتاز عن المجتمعات النامية باندماج الفرد في عائلته ، اذ يختار عملا يبقيه قريبا من اهله ويميل الى توظيف اقاربه عندما يكون صاحب عمل . يضاف الى ذلك اننا لا نرى الانسان فردا حرا مستقلا بل نراه عضوا في عائلة او دين ، فنشدد كمجتمع سلطوي على **الاعتماد** وعلى **الطاعة** . كيف تنعكس هذه المعطيات على وضع المرأة ودورها ؟

في هذا المجتمع القبلي ترسم الادوار لكل فرد لانه قبل ان يكون ملك نفسه ، فهو ملك هذه المؤسسة التي لها حق مطلق عليه ، وليس في حياته ما هو خارج سلطتها . الرجل والمرأة هنا مستعبدان ، ولكن كل منهما بطريقة مختلفة وبضغوط اكثر او أخف . هما يتحركان وفق الادوار التي رسمت لهما . فللرجل دور الحامي ، القوي المسؤول ، والقوة هنا لا تزال اجترارا لقوة الانسان البدائي المركزة في عضلاته ، (والمرأة ثانوية في هذا المجال)، وللولد امكانية وجود حتى يصبح بالغا ، وللمرأة دور حاملة التقاليد والمحرمات . فهي اساسا وسيلة انجاب واكثار عددي للعائلة التقليدية ، اذ يكون العدد الكبير من الاولاد امتيازا ، يؤمن سيطرة وقوة ودفاعا (خلقنا بارودي) ويؤمن أيدي عاملة منتجة لا تحتاج الى تخصص لان رأسمالها معها .

أما فيما يختص بولادة البنات ، فالوضع متناقض ، لان البنت هي أيضا يد عاملة سواء عملت في الحقل ، او في البيت ، او نزحت الى بيروت كخادمة او كعاملة ، ولانها من جهة اخرى مجلبة قلق وعار لان وضع المرأة الجنسي وضع مؤسّسي، تحمله المرأة على عاتقها ، كمن يحمل قيوده برضى ٠ ولقد استقال الرجل من مفاهيم الشرف ليجعلها مسؤولة عنها ، ويوقع بها اشد العقاب اذالم تكن على المستوى الذي رسمه لها ، والذي يعجز هو عن تأمينه لنفسه ٠ وهنا نتناول ظاهرة مهمة هي جرائم الشرف التي يقل حدوثها يوما عن يوم ، ولكن تبقى مثلا واضح الدلالة على الوضع المذكور سابقا ٠ فنحن ، نساء المقطع الثاني من لبنان ، نفهم جرائم الشرف التي تحدث في بيروت عند النازحين المعدمين من القرى على اساس انها ظاهرة اقتصادية٠ ففي هذه الطبقات التي تقبل بكل الاعمال لتأمين حياتها ، يحدث ان ترفض الاخت مثلا ان تمد اخاها بالمال الذي تحصل عليه من اي نوع من الاعمال التي تقوم بها ، فتستيقظ عصبيته العائلية التي يتساهل معها القانون ، ويقتلها في سبيل الشرف ٠ ولكن ما يجري في الهرمل مختلف ومعقد اكثر ٠ ففي البلدة مجتمع معين ، وفي الملحقات مجتمع آخر ، وبقدر درجة الارتباط القبلي تقل او تكثر امكانية حدوث هذه الجرائم ٠ وحدوثها لا يعني القيام بسلوك جنسي شائن في نظر العشيرة ، بل هو الخطيفة ، اي خروج الفتاة على ارادة اهلها ، وخطفها من قبل عشيرة ثانية ، لانها لا تشكل خطرا اذا جرت داخل القبيلة الواحدة ٠ فخطف الفتاة مرتبط بقدرة العشيرة على المجابهة وعلى الدفاع عن نفسها ، وخطف احد ممتلكاتها الانسانية هو عدم اعتبار لقوتها ولسيطرتها وهو فتح نافذة في السور الذي تخلقه حول نفسها ٠ فالخطيفة تشكل اولا تحديا مباشرا للعشيرة ومساسا بعرض الفتاة الذي يرتبط بشرف عشيرتها ٠ ولذا فالثأر ضروري لاعادة الاعتبار ، والانسان كما ذكرنا سابقا ملك للعائلة واداة لاستمرار المؤسسة ولذا فالمرأة المقتولة والرجل القاتل مستعبدان ، ليس لهما فكاك من تأدية الدور المرسوم لهما تحت طائلة النبذ ٠ ولكن يبقى بأن حق التصرف بالحياة والموت هو بيد الرجل ، فتكون المرأة الضحية الكبرى داخل هذا التقسيم الوظائفي ، والذي لا يسمح ابدا بتبديل الادوار ٠فالمرأة هنا اداة سلبية يقع عليها العقاب، بينما الرجل اداة ولكن ايجابية تتصرف بوهم حريتها ٠ واذا حدثت تسويات اخرى حسب الاصول المتبعة ، كتقديم فتاتين الى عشيرة الفتاة او بالتعويض المادي المسمى جرة العرض ، فدلالتها ليست ابدا في صالح المرأة ٠

- ان هذه الجرائم تحدث خاصة في الجرود ، اما في بلدة الهرمل ، فهي شبه معدومة ، ليس لتبدل في العقليات، بل ان قساوة القصاص والحكم، الذي هو دوما في يد الرجل تجعلها ممكنة مع وقف التنفيذ ٠ واذا كنا قد اخذنا قضية جرائم الشرف كدلالة ارتباط قاس وتأديبي بالمؤسسة ، فلأنها الصورة البالغة للاضطهاد العائلي الذي يتطابق مع الاضطهاد الجنسي المفروض على المرأة ٠ وتظهر المشكلة بشكل اوضح على الرجل وعلى ردود افعاله ، وعلى مفاهيمه للعلاقات الجنسية ، وهو يجرؤ ، طبيعيا ، على الحديث عنها اكثر مما تجرؤ المرأة ٠ وفي هذا المجال لا يلعب الانتماء الطبقي الا دورا طفيفا يتجلى في ان نساء العائلات الغنية وذات النفوذ ، المتمركزة في البلدة متحفظة اكثر من غيرها تجاه الغريب عن العائلة ، ولكن الفرق يظهر بين نساء البلدة ونساء الجرد ٠ فالاخيرة بحكم حياتها الطبيعية وتنقلاتها الصيفية والشتائية بين الجرود والوديان ، وبحكم عملها الدائم

مع الـرجل ، تعيش حياتها الجنسية داخل قبيلتها دون تعقيدات ، واحيانا خـارج قبيلتها ، شرط ان لا يعلم احد بالامر · بينمـا تصبح المرأة في البلدة بسبب بداية وجود التركيبات الاجتماعية ، ذات تحفظ اكثر · ويتجلى هـذا التحفظ على صعيد ثيابها · (فالمرأة الجردية ترتدي ما ينطبق مع طبيعـة عملها وهو يتكون من ثوب عادي فوق سروال (اصبح الان بنطلونا وفقـد قيمته الفولكلورية) وتربط رأسها بشال مشدود يحيط بكل جوانب الرأس ، وهو لباس وظائفي بالنسبة لعملها وللطقس · اما المرأة في البلدة ، والتي كانت تضع الملاءة الصفراء القليلة الوجـود اليوم ، وهـي بمثابة شرشف كبير يلف المرأة حتى اقدامها ، فلا تزال تنتقل اليوم بملاءة سوداء نبيذيـة عند قيامها بالزيارات الرسمية وبملاءة بيضاء مقطعة بالازرق لكل يوم ·) والملاءة التي تتسوقها النساء من سوريا تستعمل من عمر ٣٠ سنة وما فوق· وتحمل ككل ثوب دلالتها الطبقية بالنسبة لاسعارها · الصفراء (٩ ــ ١٢ ليرة) ، المقطعة (٤ ــ ٥ ليرات) السوداء الحريرية (٤٠ ــ ٥٠ ليرة)

وفي كل الحالات وبسبب الضغط الاجتماعي الكبير تلجأ المرأة الى «كل مستور مغفور » · ولقساوة هذا الضغط اكبر الضرر على تشويه العـلاقة بين الرجل والمرأة ، وتتجلى في علاقة ابن البلدة ببنت الجرد ، اذ قليلا مـا تحدث زيجات بين الاثنين ، وتبقى صورة المرأة في رأس الرجل امرأتين : سارة وهاجر ، امرأة المغامرة العابرة ، والمرأة الفاضلة ام الاولاد ·

المرأة المتزوجة

ولا تعاني المرأة المتزوجة كالفتاة التي يقع معدل عمرها تحت العشرين والتي تشكل جيل الهرمل النسائي الجديد · فالاولى حلت مشكلتها اوليـا بالطرق التقليدية ، مع ان اضطهاد المرأة الجنسي ليس اضطهادا قمعيـا فقط ، فمشاكل المشاركة الحياتية مع الرجل ،هي اعمق واقلق ، ويشارك الجو الاجتماعي السائد في خلق ازدواجية اخلاقية تدين المرأة في الموقف نفسه الذي تسامح فيه الرجل ·

واذا كان تطور البلدة المتوافق مع الزيجات التي تعقد بين الاقارب ، قد ادى الى تدن في تعدد الزوجات ، فان امرأة الجرد لا تزال تتقاسم الرجل وتعايش ضرتها قانونيا ، ولا تزال تعيش في مناخ الخوف النفسي من هـذا الواقع الذي ليس منه بد ، كما ان امكانية الطلاق الاعتباطي ينزع عنهـا اي اطمئنان للمستقبل ، ويحول علاقتها بالرجل الى حذر يومي ، ويزيد في سلبية دورها التربوي · اما المشكلات الصحية التي تطرح عليها والمتعلقـة بجسدها فهي تجهل كل شيء عنها الا ما تلقته من خبرة النساء المسنات · والقضايا المتعلقة بصحة عائلتها وبتربية اولادها وبناتها ــ تخضعهـن للتربية التي تلقتها من اهلها ــ ولا تخضع لاي معيار علمي وعصري صحيح، وسنعود الى هذه النقطة في المقطع الثاني من بحثنا ·

الفتاة

اما فتاة الهرمل اليوم ، وهي العنصر الجديد الثوري الذي يجب الاتكال عليه لوعي المشكلة ولتبديل الاوضاع ، فما هو حالها ؟ ان رفض هذه المرأة الشابة لوضعها كمستغلة ، يجب ان يرافقه رفض عقلاني وحياتي من قبل الشباب لوضعه هو ، كمستغل ٠ وهي قد وصلت خارجيا الى مرحلة التناقضات التي تجتازها المرأة اللبنانية ، اما داخليا فلا ٠ اذا نظرنا الى هذه الفتاة ، نراها قد تجردت من ملاءة امها وانصرفت الى ثياب حديثة تجمع الحداثة الى المحافظة ٠ ولذا كان البنطلون الوظائفي يمثل الثياب العصرية المعتمدة اكثر من غيرها ٠ ولكن بقي الشال كمحاولة تذكيرية بالانتماء والتحفظ ٠ ويظهر لنا بأن ميل الفتيات الى التعرف على الازياء الجديدة التي تصلهن بالعالم الخارجي المتمدن ، ميل هائل ، نلحظ منخلاله الاهمية التي تكتسبها خياطة البلدة ، لانها من الاشخاص المؤهلين لادخالهن الى العالم الحديث ٠ وينطلق تحرر هذه الفتاة من واقع اهلها ، فاذا كانوا يميلون الى اطلاقها ، كانت متحررة بتحفظ ٠ وهذه الفتاة دخلت المدرسة ، وطالعت ، واتصلت بالعالم الخارجي ، وعانت من عدم تمكنها من ممارسة ما ترغب ، بسبب الواقع المادي المتردي من جهة ، او بسبب تحفظ الاهل من جهة اخرى ٠ ونتيجة للواقع الصعب والمتشدد الذي تعيشه في البيت تعجب دائما بالرجل المتسامح الذي يقترب من مشاكلها ويحدثها عن الوسائل الثورية الممكنة ٠ وبينما يبدو الشاب مرتاحا الى وجوده ، تبدو هي فى حالة ضياع انتقالي ، تخلق عندها ازدواجية نفسية وعملية ٠

ان اول ما تطمح اليه الفتاة هو الخروج ٠ الخروج من البيت الى الشارع ، الى المدرسة ، الى المنتزه ، الى الهروب الكبير من هذه الضغوط الخانقة ٠ يرافق هذا حاجة رهيبة الى التعبير عن النفس ، وامكانية ثورية هائلة لو توفرت لها الظروف والمساعدة المناسبة ٠ ولكنها حتى الان وجلة خائفة تخاف من مساعدة الشاب الثوري لها لان استيعاب الثورية على مستوى العلاقات العاطفية لم يتم بعد ٠ ان هذا التبدل في مظهر الفتاة الخارجي وفي موقفها الداخلي لازمه تبدل في وضعها التعليمي ٠ فمع هذا الجيل كانت المدارس في قضاء الهرمل : مدرسة مهنية واحدة ومدرسة تكميلية ومدرسة ثانوية و ٢٧ مدرسة ابتدائية ، موزعة كما يلي : ٧ في بلدة الهرمل ، ٦ في السهل ، ١٧ في الوديان ٠ وفرضت الحاجة ان تكون المدرسة الثانوية مختلطة ، ولقد اقتنع الاهل بضرورة تعليم الفتاة ، انما من ضمن مفاهيم متناقضة ، ولقد اقتنعت الفتاة بالاستمرار في الدراسة ، سواء كانت راغبة في العلم ، او هربا من عمل البيت ، ونلحظ أنها فيالمرحلة الاخيرة من التعليم تستحصل على قسط من الحرية يؤهلها لان تقرر مصيرها ٠

ولكن يبقى ان امية الرجال والنساء متفشية بطريقة مخيفة في الهرمل، ففي مراقبة اقلام الاقتراع ولوائح الشطب النسائية والرجالية نلحظ بصمات الامية على مدى الصفحات المتتالية ٠ وفي تقرير لاحدى ادارات الدولة

تظهر لنا احصاءات اجريت على حوالى ٧٠٠ عائلة بأن الوضع الثقافي والتعليمي متدن جدا في الهرمل ، وبأن نسبة الاميين في الوديان مرتفعة جدا ، وتأتي في الدرجة الثانية قرى السهل ثم بلدة الهرمل ، وبأن نسبة الامية عند الاناث مرتفعة بشكل ملحوظ ، وبأن نسبة الذين تابعوا دراستهم بعد المرحلة الابتدائية قليلة ، ويستمر الانخفاض كلما ارتفعت المرحلة التعليمية ، وتقل الى صفر في الوديان للمرحلتين الثانوية والجامعية • ويبلغ عدد الاشخاص الذين هم في سن الدراسة ٥٥٦٢ منهم ٢٧٩١ ذكرا و٢٧٧١ انثى، ويذهب من اصل هؤلاء الى المدرسة ٣١٠٥ اشخاص منهم ١٩٢٥ ذكرا و ١١٨٠ انثى • وهناك جامعية واحدة في القضاء كله و ٣٧ جامعي في البلدة و ٣ في السهول • (في الابتدائي : ١٥٣٢ شاب ــ ٦٠٢ فتاة ــ في التكميلي : ٩٨ شابا ــ ٣٠ فتاة في الثانوي : ٤٩ شابا ١٩ فتاة) • والارقام واضحة في اظهار التردي العلمي • كما ان المستوى الثقافي ضعيف لا تغذيه الا بعض المجلات القليلة التي تصل الى الهرمل •

البطالة

البطالة متفشية في الهرمل عند الرجل والمرأة فعدد العاملين الاجمالي ــ حسب التقرير السابق ــ هو ٢٨٧٣ فردا ، يقع على عاتقهم واجب اعالة ١٣٢٧٨ شخصا اي انه يقع على عاتق الفرد العامل واجب اعالة ٤،٦ من الاشخاص ، وهو معدل مرتفع نسبيا ويشكل ارهاقا للمنتجين • ومع غنى الارض وغنى العنصر الانساني عقلا وساعدا ، فان الزراعة ما تزال بدائية، والصناعة التي بامكانها استيعاب كل الايدي العاملة الجديدة ، غير موجودة والتجارب محدودة ومحلية ، والخدمات شبه معدومة ، والسياحة : اهل لبنان لا يعرفون الهرمل • في هذا لاقتصاد المتردي ، لم تصل مشكلة المرأة الى مرحلة التعقيدات الانتقالية التي وصلت اليها امرأة المدينة العاملة • ولكن عملها يخضع الى تناقض في التقييم • فالمرأة في السهل والوديان تعمل وتنتج ، ولكنه عمل الحقل الذي لايحسب بالساعات والدوام ، تماما كعملها المنزلي ، وبالتالي فان انتاجيتها الاقتصادية الكبيرة ، لا تحور من وضعها ولا تعطيها اي استقلالية اجتماعية واقتصادية لانها تبقى في الاطار العائلي العام ، كالعاملة في خدمة السيد •

الدين

في الهرمل اليوم ١٠ مساجد ولكن هناك تراجع في الفكر الديني عند الشباب يرافقه عدم تأثير ديني مباشر على وضع المرأة • ان قوانين الاحوال الشخصية دينية في لبنان ، وتعاني منها كل النساء في كل مناطق لبنان حسب الانتماء الطائفي • ولكن عدا الامتدادات القانونية للدين في الهرمل فان التأثير ثانوي حيال سيطرة القيم العائلية التي تلصق عليها كل القيم السياسية وحتى الدينية • فالله عندنا هو مرادف لصورة رب العائلة ، ويرى الدكتور حليم بركات في دراسة له كما يورد الكاتب دافيد كوبر في كتابه بأن بعض القيم الدينية مستمدة من قيم واوضاع عشائرية كانت سائدة

عند ظهور الاديان وقبلها ، وتأثيرها بالغ في حياتنا انما غير واضح كوضوح تأثير المؤسسات الدينية • ان تبدل المستويات الاقتصادية والعائلية يبدل بوضوح في التصرفات عند ابناء الطائفة الواحدة • ويؤكد التأثير الطفيف للاعراف الدينية •

II

يتضح لنا من المعطيات السابقة بأن المرأة في مجتمع كمجتمع الهرمل ، عنصر عاجز **عن الانماء وعن المشاركة فيه** لاسباب تتعلق بمؤسسات وقوانين هذا المجتمع وبالعقلية التي تفرزها • وقد اظهرت الدراسات الحديثة ـ حسب محاضرة للاستاذ عبد الله زخيا ـ بأنهناك نوعين من المجتمعاتالانسانية ، المجتمع المتطابق مع صورة الام المتسامح العفوي ، والمجتمع المتطابق مع صورة الاب المتسلط المحافظ • ومجتمع الهرمل مجتمع ابوي يتصف بانه جامد غير متحرك اجتماعيا ، تتفوق فيه الروح القبلية على الروح الاجتماعية وتنتشر فيه الامية والبطالة • فيكون تجاه المرأة مجتمعا غير متسامح ، يحتقرها نتيجة الازدواج في القيم الاخلاقية ، يتصرف فيه الرجل مؤكدا على انفصال الادوار والوظائف والتصرفات وهذا ما يزيد في توتر العلاقات وفي التصرف العدواني والمسيطر للذكر • وتخضع فيه المرأة لوضع قانوني متدن يزيد عندها من القمع النفسي الذي تصرفه في تربية ولد خاضع نفسيا وسياسيا وانفعاليا للغير • ويتابع هذا التركيب النفسي **الاجتماعي** تأثيره في تسلسل حتى يصل الى قتل ابداع الفرد وابداع المجتمع وبالتالي كل امكانية خروج عفوي عن الواقع او تحريكه انمائيا وتثويره • والآن ما العمل ؟

الهرمل والمرأة ، منطقة تتساوى مع المرأة في تخلفها • والسلسلة لا تقاس قوتها الا باضعف حلقاتها • فدور المرأة في انماء الهرمل هو اذا ادوار عدة ، دور بناء شخصية نامية متكاملة قادرة على الانماء ودور مشاركة في الانماء • والفصل بينالادوار ليسالا محاولة توضيح للمراحلالضرورية التي تؤدي الى فعالية في العمل والمشاركة بعد ان لاحظنا خلال القسم الاول بأن الانطلاق في هذه المنطقة ، بصدد موضوع المرأة ، اذا لم يتم من النقطة الصفر ، فانه تستر على التأخر التاريخي اللاحق بها • ثم ان انعدام المواجهة الصريحة الصحيحة لما وضعنا على كاهلها من قيم وممارسات ، استقال الرجل منها لان الظواهر المباشرة لا تعطي بداهة الاسباب الجذرية لتخلف المرأة ، ولأن تسلم المرأة لمسؤوليات جديدة ، لم تعد لها ، اتهام جديد بعجزها وتقصيرها •

كيف تم بناء الشخصية النسائية القادرة على الانماء ؟ بازالة العقبات التي تعترضها من **الخارج** والمتمثلة سلطويا بالمجتمع وبالقوانين وبالعقليات وبالاقتصاد وبالرجل ، وبازالة العقبات التي تعترضها من **الداخل** ، والمتمثلة باستيعابها لتخلفها وقناعتها به ومدافعتها عنه • العمل شاق وطويل ويتطلب تكاتف القطاع العام والخاص ومنهجية عمل واضحة • والعمل هنا ليس بمنفصل عن مشكلة المرأة عامة في لبنان ، وعن مشكلة الرجل في الهرمل ، مع انه مختلف ببعض الاختلاف

في اوليات المعركة التحررية • فالمشكلة تتضح هنا في خلال التقاليد العشائرية المتحكمة بالرجل والمرأة • هذه التقاليد ترتكز في اساسها على اقتصاد زراعي بدائي ، ضئيل الدخل ، غير مصنع ، ومتنقل • هذا الاقتصاد يخلق نسق حياة يومية متخلفة صحيا وثقافيا ، ومترابطة لمواجهة الخارج • لهذه الحياة اعراف وقيم وارتباطات تحدد موقع المرأة في نقيضين : المرأة ملكية وضعت اليد عليها ، وهي عامل اكثار لعدد افراد العشيرة ، وموضع شرفها ، والمرأة ملكية مسلوبة ،فهي عامل انقاص لعدد افراد العشيرة ،وموضع عارها • فمن نقاط الاختلاف بين مشكلة المرأة الهرملية ، وغيرها من نساء لبنان ، ان الوضع العائلي اقسى في الهرمل حتى من الوضع الديني ، وان الوضع الاقتصادي المتردي يرافقه تعرف الى حالات حضارية جديدة لا تستطيع المرأة ولوجها لتعدد الحواجز والضغوطات ، ويرافقه اثبات لتقارب تخلف المرأة والرجل ولوحدة معركتهما • اما بالمقارنة الى رجل الهرمل ، فقد حصلت المرأة على المساواة بينها وبينه ، في الامية ، وفي ضآلة الدخل ، وفي البطالة وفي الحالة الصحية والثقافية والسكنية • ولكنها تعاني اكثر لان وجودها الحقيقي مطموس ، ولان دورها ، حتى الدور العائلي التقليدي ، دور غير معتبر ، ولان جسدها عبء مؤسسي عليها وعلى غيرها •

التعليم

ان الهزة الانمائية الاولى في مجتمع الهرمل هي القضاء على الامية • وهذا لا يتم الا بالاكثار من عدد المدارس وبمجانيتها وبعلمنتها وباختلاطها وبتكيفها مع المحيط ، وبايجاد حياة ثقافية متحركة فاعلة • نحن نعرف بأن عدد مدارس الهرمل ، وان بدا مقبولا ، فهو لا يخفي حالتها • ان كل مدارس الهرمل الموجودة في السهل والوديان وباستثناء مدارس البلدة السبع ، هي مدارس ابتدائية مؤلفة من غرفة واحدة يدرس فيها كل الصفوف مدرس واحد • وهذا العدد ليس مؤهلا ابدا لاستيعاب عدد التلاميذ في السنوات الخمس المقبلة الذي سيبلغ ١٩٧٥ تلميذا اي بمعدل ٣٩٩ تلميذا سنويا اذا اعتبرنا ان كل الاشخاص الذين هم دون ٥ سنوات سيدخلون المدرسة عند بلوغهم سن الدراسة • ان وجود مدرسة واحدة مختلطة في كل القضاء عامل مشجع ولو انه غير كاف لتبديل النظرة الى العلاقات الانسانية ، ولتبديل نظرة الاهل الى تعليم الفتاة ، ونظرة الفتاة الى العلم • ونستطيع ان نأخذ مثلا عن التبديل الاجتماعي الذي خلفته المدرسة ، اذا اعتمدنا حياة استاذ المدرسة في الهرمل ، المتطور عن محيطه ، فتعامله النسائي عصري منفتح ، وطريقة تربية اولاده وبناته متحركة ايجابية • ولا ننس بأن استاذ المدرسة له تأثير كبير في مجتمعه الريفي ، حيث يكون النموذج ، وحيث تكون امنية كل فلاح ان يصبح ابنه استاذ مدرسة ، او موظفا ، اي عاملا ذا قبة بيضاء • يتوضح لنا من الاحصاءات بأن هناك عددا شبه متواز من الصبيان والبنات في مدارس الهرمل الابتدائية • ولكن العدد الكبير من البنات يتوقف عندهذا المستوى ، والعدد القليل يصل الى المرحلة الثانوية • وفي حصولها على هذا القسط من التعليم العالي تصبح الفتاة الهرملية مخضرمة ومعذبة اكثر من غيرها ، لان وصولها الى هذه الدرجة العلمية لا ينفي خضوعها لواقع اقتصادي ولواقع اجتماعي واحد تتقاسمه بالتساوي مع الفتاة الامية التي لم تع وضعها • وهنا تبرز لنا

اهمية تبديل طريقة العلم ونوعيته • ان توقيت العلم في الريف يجب ان يعتمد المواسم وتعاريج الحياة الريفية كمواسم الزرع او القطاف او النزوح من السهل الى الجرد ، لتلافي غياب الاعداد الكبيرة من التلاميذ الذين يساعدون اهلهم • ان نوعية التعليم في الريف وغايتها يجب ان تتبدل • فالفتـــاة هنا تطالب بالحاح بمدارس تتلقى فيها الخياطة ، او التدريب المنزلي ، او العمل اليـدوي ، او اصـول التربية لانهـا وعت دورهـا التقليدي في هذا المجتمع ، ولانها لا تستطيع ابداله ، فهي تطالب بتحسينه وتطويـره على الاقل ، كي يكون تلقيها للتعليم هادفا ومفيدا •

ان البرامج التعليمية هي ذاتها في بيروت وفي الهرمل ، ونتيجة لهذا التشابه ، يحدث عدم تطابق بين النظري والعملي ، بيـن العلـم والواقع • فالقروية ، عندما تتعلم ، تنزح الى المدينة ، وتترك وراءها تكرارية العمـل الزراعي ، او البيتي ، المملة ، وتقع بالتالي في المشكلة ذاتها التي يواجههـا الرجل المتعلم في مجتمعنا • وهناك ملاحظة أخيرة ، هي ان التربية التـي يتلقاها التلميذ في مدارسنا،ذات محتوى تقليدي رجعي،تنتج افكارا امتثالية ومسلكا متلائما مع متطلبات الاوضاع القائمة ، وتسهم في الابقاء علـى الصورة التي يحملها عن المرأة ،وعن طبيعة العلاقات الانسانية والعاطفية ، دون اي ديناميكية ثورية ، ودون افساح مجـال للتحرك الانساني الـذي تفرضه حيوية العقل البشري • فالحل اذا ليس في العلم بالمطلق • بل فـي علم منسجم مع حاجات وتطلعات المنطقة • ان العلم المعطى بصورته الحاضرة هو قذيفة تؤمن هجرة كل امكانية الى خارج المنطقة ، وخاصة هجرة الفتاة التي تنوء بازدواجية العملـي والنظري وبالتشويه وبالانقطاع عن واقعها • ووجود مؤسسات ثقافية ،ضروري لتحريك الحياة العلمية والثقافية فـي الهرمل التي تتيح للمرأة التعبير عن نفسها وعن امكاناتها • وقد رأينا بأن وجود هذه المؤسسات مستحيل دون تحرك ابداعي يفتقر اليه مجتمع الهرمل (للاسباب التي ذكرناها سابقا •) اما اتصال المرأةبالثقافة فضئيل ، اذا اعتبرنا انعدام لقائها الثقافي بالرجال ، والمجـلات النسائية القليلـة التـي تصلها والتي تحمل في رومنطيقية قصصها،مجال تخدير وهروب من الواقع، وتوحي لهن بمحاولة تطبيقمثالية للقصص العربية العاطفية على حالاتهن • فتأمين العلم والاطلاع الثقافي ، معالاخذ بعين الاعتبار ان كل حل في المطلق هو حل خاطىء ، هو الخطوة الاولى الضرورية لايصال المرأة الى نفسهـــا ولمصالحة المرأة مع عقلها • وهو مشروعوطني يقع على عاتق الدولة وعلى عاتق كل مثقف ، مع التشديد على انها خطوة ، يجب ان يتبعها تبديل جذري يجعل من المدارس والمؤسسات الثقافية ترجيعا لوضع اقتصادي ـ اجتماعي عادل وصحيح •

العمل

المـرأة في الهـرمل عـاملة سـواء في داخل بيتها او فـي خارجه • وتبدو لناظاهرة اساسية وهيان امراة الجرد والسهول تعمل خاصة فـي الحقل ، تساعد الرجل في كل اعماله وتتنقل معه اولا ، عند تبدل المواسـم الزراعية • فهي اذا منتجة اقتصاديا،ولكنانتاجيتها لا تسهم في تثوير وضعها الاجتماعي ، وفي تبديل كل الافكار المسبقة عنها • أما تفسير ظاهرة المرأة

القوية الادارية التي نراها في الجرود فينحصر بانها اخت الرجال وهي هوية جديدة تخلصها من الاطار النسائي ،كي تستطيع اضفاء الصفات القيادية عليها • نستنتج اذا بان عمل المرأة هنا لا يبدل في علاقات الانتاج ، لا يتطلب تخصصا وتطورا لانه عمل تكراري،لا يؤمن لها التأثير المباشر على الاقتصاد الوطني ، ولا يخرج بها عن اطار الاستغلال الصامت للجهد اليومي وبالتالي فلا نستطيع اعتباره تحررا اقتصاديا • واذا اعتبرناه حرية اقتصادية فهي بدايه غير كافية لان العمل المعطى لها في خارج البيت – اي بيت ؟ – تقليدي منسجممع ايمان الرجل بضعفها وتبعيتها • وبين الجرد والبلدة نلتقط الظاهرة الثانية ، وهي ان تركز العائلة في البلدة بتركز الاقامة والعمل والملكية الخاصة ، اعاد المرأة الى داخل البيت ، للمحافظة عليها ، مادامت الوسائل المادية للمحافظة قد تأمنت ، وأعيد التقسيم التقليدي للعمل • الرجل يعمل في الخارج ، وهو عمل يربطه بالحياة العامة، وبانتاجية لها قابلية البيع والشراء ، والمرأة تعتني بالبيت وبالاولاد ، بعمل متواتر وبانتاجية تستهلك بسرعة ، كالترتيب وتحضير وجبات الطعام والتنظيف •

ونتيجة لهذه الحياة تكونت عادات محافظة اكثر من عادات الجرد وردود فعل متزمتة وقاسية اكثر • وكان ما يحبب للمرأة هذا النوع منالعمل في داخل البيت ، اعتباره تطورا عن عمل المزرعة في الحقل ومايفترضه من تعب وبؤس ، فكانت عودتهاالى البيت ، في ظل هذا المنطق ، نوعا من رد الاعتبار لها ، مع انه انتقاص من حريتها واعتبار بأن عمل البيت ليس عملا مرهقا • والحقيقة أن الاحصاءات الاخيرة العالمية اثبتت بان المرأة السويدية التي تقوم بكل اعمالها المنزلية بالضغط على الازرار الكهربائية ، تقضي في عمل المنزل نصف حياتها ، فكيف الحال بالمرأة الهرملية ؟ ان اغلبية نساء البلدة ربات بيوت وهناك قسم قليل يعمل في الحقول بالقطاف او بلم الحطب ولا تختلف حالته كثيرا عن امرأة الجرد • وهناك قسم نسائي ، ترك الهرمل ليعمل ،وينحصر في عدد الخادمات الصغيرات اللواتي يعملن في بيروت او في المدن الاخرى ، عندما تدفع الفاقة بالاب الى تشغيل ابنته والاستفادة من جهدها بطريقة لاانسانية ، وعندما تتشوه الفتاة نفسيا بين نسقين مختلفين منالحياة ، وتتضارب مع واقعها • والنوعية الثانية ينحصر في عدد النساء العاملات في المعامل المحيطة ببيروت وضواحيها ، وهي تقاسي ما تقاسيه المرأة العاملة من خسف وانخفاض اجور وتعسف وعدم مساواة • وهناك قسم نستطيع ان نعتبره من الرواد ويتكون من المدرسات في مدارس الهرمل، ومن الخياطات المتخرجات حتى الان من مشغل الانعاش الاجتماعي • ان هؤلاء يتمتعن بحرية اقتصادية تؤمن لهن الحصول على قسط من الحرية وعلى امكانية تقرير مصيرهن ، ضمن الحدود المعقولة • وهذا ما يشجع الفتيات الاخريات على اتباع خطواتهن •

هذه هي صورة المرأة الهرملية العاملة ، تعيدنا الى القول بان كل حل في المطلق هو حل خاطىء ، لان العمل خارج المنزل والاستقلال الاقتصادي من اهم عوامل تحرير المرأة ، ولكن نلحظ بان المرأة العاملة هنا – عدا القسم الاخير – تعمل دون تدريب وتحضير ، وهي وسيلة استغلال وعملها لم يحور اي شيء سواء في وضعها الاجتماعي او في تحرك مجتمعها • كيف يكون اذن عمل المرأة وسيلة تحرر وتغيير لعلاقات الانتاج الموجودة ؟

ان الحلول الفردية الصغيرة لا تحل المشكلة على صعيد وطني • وحل المشكلة الاقتصادية في لبنان اوتوجيه الاقتصاد اللبناني هو الكفيل بحل مشكلة عمل المرأة وعمل الرجل • ان اقتصاد لبنان اقتصاد خدمات ، ومنطقة الهرمل منطقة زراعية ، نخاف ان نعالج مشاكلها بعقلية مجتمع الخدمات المباشرة والسريعة • ان الريف يفترض تحسين الزراعة وبالتالي تحديث الصناعة التي تستوعب كل الايدي العاملة القادمة ،فمن سيقوم بهذه الخطوات التطويرية ؟ هل هي الرساميل الكبيرة في لبنان ؟ وهي في الوقت الحاضر تنوء من السيولة ؟ قد يكون ، ولكننا لا نعرف متى ، لانها غير مستندة الى معطيات داخلية بل هي حلقة عبر العلاقات الرأسمالية العالمية • الدولة ؟ هذا دورها ، والخطة الحكومية الجديدة تفتح الباب أمام امال انمائية نرجو ان تتحقق • واخيرا ليس المهم ان تعمل المرأة لتتساوى بالرجل • فالرجل يعمل في مجتمعنا وعمله اداة استغلال • المهم هو اعادة اعتبار للعمل كوسيلة انتاج مرتبطة بالاقتصاد الوطني ، فاعلة فيه ، محررة لعلاقات الانتاج والملكية ووسائل الانتاج ، ومحررة للانسان من اي استغلال •

ان العمل النسائي ليس وسيلة هروب من وضع الى آخر ، الا تكتيكيا• فاذا طالت مدة الظاهرة ، اصبحت مرضية • واصبح العمل عامل استعباد بدل ان يكون عامل تحرير •

المشاركة في الحياة العامة والسياسية

نعرف كلنا بان المرأة اللبنانية حاصلة على حقوقها السياسية ، ومع هذا لم يتحور اي شيء في السياسة اللبنانية منذ عام ١٩٥٤ حتى اليوم • عمليا ، المرأة كائن لاسياسي ، اذا ناقص المواطنية لا تظهر مشاركتها في الحياة السياسية الا في مواسم كمواسم الانتخابات ، وهي حفلة تؤمن لها وسيلة بروز واظهار نفس ومقدرة • فاذا تطوعت لخدمة مرشح يرضى عنه الوالد يسمح لها عن طيبة خاطر بالخروج من البيت في اية ساعة وبعودتها في اية ساعة ايضا ، فتكون حماستها لمرشح معين مناسبة للتمرد على سجن البيت والتقاليد في مجتمع قاس • والمرأة لا يخاطبها المرشحون ، لان مخاطبتهم للرجل كافية ، وهي لا تناقش برامج المرشحين ، ولا انتماءاتهم السياسية ولا وعودهم،لان ذكور العائلة متمرسون بالسياسة ويقدرون المواقف افضل منها • ان الدخول بالمرأة الى عالم السياسة لا يتم بواسطة مواسم انتخابية او بممارسة حق انتخابي شرط ان يرضى عنه الزوج اوالوالد • فدخول المرأة مجالات الحياة العامة يحور في ميزان العلاقات السياسية ، وهذا مالم يحدث حتى الآن ، لان التحول الاقتصادي هو الذي سيقود الى الفعل السياسي •

القضاء على الانتماء العائلي الضيق واحلال المواطنية محل العائلة

ان العائلة او العشيرة، بحكم علاقتها بالطبيعة وعزلتها تستدعي نوعا من التضامن لكي تبقى ، ولكي تدافع عن نفسها وعن ممتلكاتها المادية والانسانية • ففي بلدة الهرمل حلت الرابطة العائلية محل النظام العشائري

وتجمعت العائلات في مجموعات سكنية متقاربة • ولكن جميع النازحين من الوديان والسهل الى البلدة، بسبب الضغط الاقتصادي، حملوا معهم العقلية العشائرية ، مما ادى الى تناقضات اجتماعية عائلية ـ عشائرية ضمن البيئة السكنية الواحدة ، والى استمرار العادات القبلية كالاخذ بالثأر والمصالحات العشائرية ، وخطف الفتاة • بالمقابل في البلدة ، حيث اجبر هذا الوضع العائلات ، على ان تزداد عصبيتها ، بقيت العلاقات العائلية تطرح نفسها ، متخطية مفهوم العشيرة ، بتشجيع روابط العائلات التي ليست الا نوعا اخر متطورا من الارتباط العصبي • ولا تتفتت هذه الروابط الا بالانتماء السياسي ، ولكن حدث ان التنظيمات السياسية نفسها حملت شكل التكتل العائلي • ان المرأة التي هاجرت الى بيروت (العاملات مثلا في معامل ضواحي بيروت) تفتتت عندها العلاقات العائلية لسبب اقتصادي وخضعت لعلاقات عمل جديدة واصبحت مختلفة عن ابنة بيئتها غير المهاجرة ولكن اضطرارها الى العودة للانتخاب في الهرمل يخضعها للعلاقات الانسانية القديمة •

لقد رأينا بان الولاء للعشيرة او للعائلة هو استعباد ضمني للانسان الذي ينتمي اليها • وفي الخلاص من هذه العقلية خلاص للرجل وللمرأة من الادوار المرسومة لهما • فالجمعيات العائلية تعمق الدور ولاتمحوه • والانتماءات السياسية يجب ان تكون عقائدية • والتحولات الاقتصادية هي التي ستهز الوضع وتبدله جذريا • اذا تمردت المرأة على العائلة ، فقط دون رؤية جذور المشكلة ، تكون منسجمة مع المفهوم التقليدي الذي تعيش داخله• أي ان عالمهما عالم صغير ومواجهاتهما صغيرة • بينما ترتبط قضية المرأة بقضية الفئات العاجزة والمستغلة في المجتمع،وعدوها ليست مؤسسة العائلة أو العشيرة ، بل مسببات هذه المؤسسة الضاغطة،وكل ما يسهم في المحافظة عليها • ان الانتماء العائلي الضيق يفترض نوعا من التسوية الاجتماعية على حساب الفرد• وتقع هذه التسوية اغلب الاحيان على حساب المرأة التي تنطبق عليها كل أوصاف الملكية الخاصة ولهذا ففي تحلل هذه العلاقات رؤية واضحة وتقييم صحيح لكل انسان لا يقاس قيمته بانتساباته وانتفاء لظاهرة الخطيفة • ان التصنيع الزراعي وتبديل علاقات الانتاج وارتفاع المستوى الاقتصادي والثقافي ، سينقل الانتماء من عائلة الى طبقة لها مصالح مشتركة ، الى مواطنية عادلة تنفي كل تفريق •

تبديل القوانين لتبديل العقليات

النقطة الاولى تتناول قانون الاحوال الشخصية في لبنان ، وهو قانون ديني • والمرأة الهرملية الشيعية تخضع كبقية نساء لبنان من طائفتها لقانون صنعه رجال في سبيل الرجال وكان للمرأة فيه غبن وعدم تفهم • ومهما اعتبرنا بان مجتمع الهرمل عشائري يقوم العرف فيه مقام القانون ، فان للقانون الديني تأثيرات نفسية كبيرة هي في اساس العقلية غير العادلة التي تعاني منها المرأة • فالمرأة لاتزال تعتبر عامة عمليا او ضمنيا كوسيلة متعة واكثار نسل ، مصيرها بيد رجلها ،تحت طائلة الطلاق او تعدد الزوجات ، مركزها في العائلة ثانوي ، وعقليتها غيبية قدرية • ان الحل الاساسي هو في احلال العلمانية محل الطائفية لكي يتحول الانتماء الطائفي الى انتماء

وطني يؤمن المساواة بين لبناني ولبناني وبين المرأة والرجل في الخضوع لقوانين علمانية واحدة عصرية وعادلة ، تعيد للمرأة اعتبارها • ومن الطبيعي ان القانون اذا تبدل في سنة فان العقليات تحتاج الى سنوات•ولكن من يجرؤ على المطالبة حتى بخطوة تبديل القانون ؟ والنقطة الثانية تتناول القانون الجنائي وبالتخصيص الموقف مُن جرائم الشرف • فهذا القانون متواطىء مع الرجل ، مضطهد للمرأة ،ففي كل مجتمع متخلف ، هناك رد فعل قوي تجاه المخالفة الجنسية النسائية ، أي هناك قصاص لا انساني للمرأة على وضع يمكن حدوثه طبيعيا وبكل بساطة ، يقابله شبه قصاص شكلي للرجل على حادث قتل ارادي • ويقول غسان كنفاني في اخر مقال له بان الانظمة المتخلفة بالرغم من دورها المباشر وغير المباشر في خلق مسرح الجريمة الجنسية ، فانها تهرع الى مساندة مجرمي العرض ، قتلة اخواتهم وزوجاتهم وبناتهم وامهاتهم وبنات عمومتهم ، بفرض عقاب شكلي ، في حين انها تقف عاجزة عن تقديم اي حل لحماية تلك الاخوات والزوجات والامهات وتوفير استمرار الحياة لهن •

ان هذا القانون سيف مسلط بيد **الرجل وحده** ، وبقاؤه – حتى مع عدم التنفيذ – اضطهاد ضمني للمرأة بالردع القاتل ، وقمع قسري لكل تحركاتها •

تحرر المرأة من عبودية جسدها

ويرتبط بالنقطة السابقة ما سنذكره الآن•فاساس الاضطهاد النسائي مرتبط بالفارق الجنسي الموجود بين الرجل والمرأة • ولذا نستطيع اعتبار المرأة مستعبدة لجسدها ، وبالتالي منقسمة على نفسها ، تحتاج الى ان تتصالح مع جسدها ، وان يتصالح وجودها ، المتوحد جسدا ونفسا ، مع محيطها • واذا اعتبرنا ان اول هدف للانماء هو تحرير الانسان ، تساءلنا، كيف يحرر الانسان اذا لم يكن مالكا لجسده وهو اكثر الاشياء التصاقا وتاثرا به ؟ فجسد المرأة في الهرمل ملك للعشيرة التي تقيمه حسب مصالحها كرأسمال جنسي وملك للظروف الطبيعية التي تخضع لها المرأة بسبب جهلها للامور الصحية • ولا ننسى ايضا بان الرجل ملك القبيلة التي تطلب منه جسدا قويا مقاتلا، شجاعا• ففي تخطي هذه العبودية، تحرير للجسدين من العبودية الطبيعية البيولوجية كالمرض وكالامومة المفروضة ومن العبودية الاجتماعية المتمثلة بشرف المرأة وبقوة الرجل • اذا يجبر الانسان على خدمة هاتين الفضيلتين على حساب حياته واختياراته الشخصية ، وعلى الرضوخ لتقسيم المجتمع المناسب لآلية الاضطهاد •

العبودية الاجتماعية الجنسية

ان العشيرة لا تخاف على المرأة عندما تقف رقيبة على حياتها الجنسية، بل تخاف على نفسها • واذا علمنا بان حياة الجرود والتنقل بين الوديان والسهول ، حياة تؤمن سهولة الاتصال بين الرجل والنساء ، استنتجنا بان

المهم هو الا يعرف الآخرون . وهو اعتراف ضمني بالحاجات الانسانية الطبيعية ، شرط ان لا تصبح القضية الشخصية اتهاما اجتماعيا .

العبودية الصحية

وفقدان التوجيه الصحي والتأمينات الصحية ، **يجعل من جسد المرأة** عقبة أمام تفتح شخصيتها . ففي كامل قضاء الهرمل قابلة قانونية واحدة تعمل في المستشفى الحكومي ، وقابلات غير قانونيات يتوزعن كما يلي : الهرمل ٥ الوديان ١٢ السهل ٣ وتكون النتيجة حصول وفيات عديدة بين النساء الحوامل ، سواء في وقت الولادة اوبسبب الاجهاضات المفتعلة والبدائية الطرق . **ان تنظيم الاسرة يفترض مواجهة صريحة وجريئة لكل** المشاكل والتحولات التي يجابهها جسد المرأة وهذا لا يتم الا بوعي صحي مرتبط بمستوى ثقافي معين ، وبوعي علمي لوظائف الجسم كله دون اي حرج طفولي ، وبمعرفة متطورة لوسائل منع الحمل كي لا تكون الامومة عبئاً مفروضا على المرأة ، **بدل ان تكون اشباعا وتفتحاً لشخصيتها . ولكن كيف** سيتم هذا ، وارتباط المحرمات والافكار المسبقة بجسد المرأة **يحول بينها وبين** الرؤية العلمية العصرية ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، فالحالة الصحية والتجهيز الصحي في حالة متردية واقرب صيدلية تبعد عن بلدة الهرمل حوالى ٦٠ كلم . ان كل ما ذكرنا يشكل العقبات الخارجية **التي تحول بين** المرأة وبين نمو كل نواحي شخصيتها . وبقيت عقبات داخلية **ليست الانتيجة** للاولى ، وتتجلى في استيعاب المرأة لتخلفها وفي قبولها به ، **وفي عدم الجرأة** على الجهر بشقائها .

ونلحظ هناك ظاهرة اقتناع المرأة بواقعها ومحاولتها **التبريرية له امام** الغير ، لكي تستطيع مداراة المشكلة والعيش بسعادة . **فهي تفضل الا تعي** المشكلة لانها ستكون مكبلة امامها ،وتحاول بتجاهلها ان تدافع عن حياتها القانعة .ويظهر هذا خاصةعند المرأةالمتزوجة .بينما نلحظ عند الفتيات**فريقا لا يعترف بوضعه المتردي** ، وفريقا يتململ ، **لا يعرف تحديد طريق تحرره ، او يتلهى بمعارك جانبية تافهة** ، ويدخل في آلية عالم الرجل .ان شهرزاد **عندما احتالت على شهريار لم تكن تريد ان تبدل العالم او تبدل شهريار . انها دخلت في عالمه وآلية عالمه وجعلت له امرأة كما يريد . والمرأة وقعت كثيرا في هذا الفخ . اننا نعيش في عالم هو عالم الرجل ، ولا يجوز ان تخدع المرأة بمعارك تجريبية يوجهها اليها الرجل ، لانها في صالحه في نهاية المطاف ان ثقتها بنفسها ضرورية ومهمة في محاولاتها لتبديل العالم ، لايجاد موضع قدم في عالم رجال فصله الرجال على قياساتهم .**

III

هذه التبديلات المطلوبة ليست الا خطوات انمائية تسهم فيها المرأة كمستفيد ومتقبل للنمو اولا وكمشارك فيه ثانيا . والمرحلتان متطابقتان ومتصلتان زمنيا .وبما انالمسيرة الانمائية هي مسيرة كل المجتمع **لا مسيرة قطاع واحد فيه فاننا شملنا كل الهرمل عندما قصدنا الكلام على امرأة**

الهرمل ، ولا تشكل الخطوات التي ذكرناها ، الخطة الانمائية النسائية فقط. ان المرأة في خلال حصولها على بعض المطالب الاولية التي تسمح بايصالها الى التفكير والى الحضارة ، تزداد ثقة بنفسها وبمقدرتها ، وتساعدهـا انتصاراتها الصغيرة ، سلاحها الجديد ، على المتابعة وعلى المشاركة التي ستستخرجها الى المجتمع كعامل يود العمل ، ويملك القدرة عليه . ان دور المرأة حتى الان فيمجتمعالهرمل الساكناجتماعيا،كان دورا جامدا تكراريا. كانت تنجب الاولاد ، وهذا طبيعي ، تعمل في البيت او الحقل ، في خدمـة ابيها ، ثم تنتقل الى خدمة زوجها ، ترتبط بها كل المحرمات التي تجعل منها « الحرمة » ذات وجود ثانوي او تستري . ولكن امرأة الانماء المقبلة لن تكون كالرجل ، وهذا شيء حسن .ان دورها الطبيعي البيولوجي لن يتبدل ولكنها ستصبح اكثر علمية ووعيا في مواجهته وقبوله ، ودورها التربوي سيكون انمائيا حقا عندما تضع في اذهان الصغار الصورة الجديدة للمرأة وللتعامل معهـا . ودورها الصحي سيبدل عندها مفاهيم المرض والصحة والغذاء ، خاصة ان كل العائلة تسلم المرأة مهمة تغذيتها . ان المرأة لن تهجر ادوارها التقليدية بسهولة ولذا فقد لحظت مشاريع المرحلة التحضيرية الاجتماعية في الهرمل ، التدريب على الاعمال المنزلية والاجتماعية والحرفية مع تشجيع العمل وانشاء مركزين صحيين نقالين في الهرمل . ان انشاء مراكز لتنظيم الاسرة ، ومراكز لحماية الامومة والطفولة ،ومراكز لمحو الامية الوظائفية عند النساء ، ودور الحضانة والتدريب التربوي ، شيء ضروري ملح ، اذا اعتبرنا ان للمرأة عدا المشاكل التي تتقاسمها مع الرجل ، مشاكل تختص بها وحدها كامرأة ولا يجب ان تعالج كهوامش للبرامج الانمائية .

ولكن هل يكفي ان نعمق الدور التاريخي المعطى لها ، دون ان نطلقها الى امكانيات المشاركة الانمائية في كل القطاعات التي يستملكها الرجل ؟ في مؤتمر عالمي دعت اليه وعقدته شعبة التنمية والشؤون الاجتماعيةالتابعة للأمم المتحدة في حزيران ١٩٧٢ كانت الدراسة الاساسية التي دارت حولها المناقشات بعنوان : تكامل المرأة في التنمية . ولقد اكد الدكتور فرحـات ممثل لبنان في هذا المؤتمر بأنه كان هناك شبه اجماع على ان المشاكـل الاساسية التي تحول بين المرأة واخذها دورها كاملا في قطاعات التنميـة انماهي نابعة اساسا من العادات والتقاليد ومن تقسيم المهمات الذي يجعل دور المرأة ثانويا في سوق العمل ، خاصة في المناطق التي لا يوجد فيهـا طلب متزايد على اليد العاملة . ان المجتمعات المتخلفة التي تعيش الفقـر تخلق ، لكي تحاول التغلب على تخلفها تمييزا بين القطاعات الانمائيـة فهي تعطي النمو الاقتصادي ــ مع انه ضروري ــ اهمية مطلقة متجاهلـة ان النمو الاقتصادي واستمراريته ليس الا نتيجة لنمو تكنولوجي ، صحي وثقافي ، وبالمنطق الانمائي ذاته تفرق في محيط العمل بين وظائف الرجال ووظائف النساء ، ويختصر هذا التفريق في تمسك الرجل بالوظائف القيادية وفي اصراره على وضع القرار السياسي والاقتصادي والاداري . ويكون هذا القرار منسجما مع عقلية الرجل ، ومن المستحيل ان يكون طليعيـا بالنسبة للمرأة . والسبب هو ان الرجل في المناطق او البلدان المتخلفة ، رجل مغلوب عـلى امره في العالم الخارجي ولـذا يحاول تقوية سلطتـه المنزلية ، رجل تستهلك كرامته يوميا ، دون أن يكون قيما عليها ، فيحـاول ان يجعل نفسه قيما على شرف امرأته ، ويعيد القيمة الى التقاليد ، فـي محاولة جماعية للحفاظ على النفس . ان علاقة الرجل المتخلف بالعالـم

الخارجي ، علاقة مريضة ، ولذا فهو لا يستطيع الا اقامة هذا النوع من العلاقات مع اهله وعائلته · ولذا فان تحوير علاقة الرجل بالسلطة الخارجية سواء كانت سلطة عمل او ادارة او سياسة ، يحول علاقته بعائلته في الداخل ويحول علاقة الام بابنها · فالقمع الخارجي للرجل سواء في العمل او في السياسة ، او في الجنس يخلق منه دكتاتور العائلة السلطوي · والقمع النفسي للمرأة في داخل هذا الاطار يجعلها تصرفه بتكرار حركة الخضوع المرضية في تربية ولدها ومعالجة قضاياها العلائقية ·

اذا عملت البرامج والمؤسسات الانمائية على تبديل وضع المرأة ، فقد فانها تنبذ في الوقت ذاته كل المواقف والتصرفات والانتقاءات الجامدة والمريضة في عائلة بكاملها ، والتي تشكل اقفالا على الثورية والابداعية في المحيط · ولكن هذه البرامج ، يجب ان تنبع من موقف سياسي اساسي ، يؤمن له الكفاية المادية ، والعدالة في توزيعها ، يؤمن له القوانين العصرية والعلمانية التي تساوي بين كل المواطنين وبين الرجل والمرأة · يؤمن له العلم المتطور والعمل المحرر ، يؤمن له الحركة الديناميكية المنفتحة الحرة المبدعة · ويحترم الانسان بتخليصه من كل القوى الطبيعية الرئاسية والعشائرية السلطوية ·

ان العامل الانمائي المرحلي الاول هو تحضيري تعويضي عن التأخر النسائي التاريخي · وبقيامنا به لا نكون قد حررناها تماما بل جعلنا منها مساوية للرجل في مشاكله وفي مواجهاته الحياتية · تتعامل بالاشياء التي يتعامل معها على المستوى ذاته ، اي بهذا تبدأ المعركة المشتركة المتحركة المستقبلية وينبغي تقسيم الادوار والوظائف الى ثانوي واولي ، باحترام يفرد كل انسان بمعطيات خاصة ، وتزداد مواجهة القوى الضاغطة سواء كانت اقتصادية او ثقافية او سياسية ، عمقا وفعالية · فاشراك نصف السكان ـ المرأة ـ الذين هم في سن العمل وعاطلون عن العمل المنتج ، في عمليات انماء المجتمع يضاعف عدد العاملين ويعجل في القضاء على التخلف ، ويؤكد دورها الانسيابي في التحول الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فى البلدان المتخلفة · ان المجتمع المتحرك هو الذي يؤمن للانماء استمراريته وتطوره ، شرط ان لا يتم هذا التحرك من خلال منطق الرجل الذي اعتاد وحده وعفويا التسلم المصيري للعالم وللمجتمع · ان المراحل الانتقالية قد تخلق نوعا من الانتكاسات التي لا يتحملها الا المجتمع المؤمن بضرورة الهزة الكاملة للوجود الانساني والتي لا تتم بدون ضحايا ·

الهام كلاب
(بيروت)

وثائق

الثقافة والثورة
في جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية

ننشر فيما يلي القسم المتعلق « بالمسألة الاجتماعية والثقافية في مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية » ، وهو الباب الخامس من برنامج الجبهة القومية لمرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية ، الذي أقره المؤتمر العام الخامس المنعقد في آذار (مارس) ١٩٧٢.

ان الاوضاع الاجتماعية والثقافية التي وجدت في بلادنا تعكس مدى التخلف الذي أورثه لنا النظام الملكي الاقطاعي والنظام الاستعماري الشبه اقطاعي .

واذا كان التخلف في الاقليم اليمني احدى نتائج هذه التركة ، فان الاستعمار البريطاني قد عمل على استخدام سياسة (فرق تسد) ومارس هذه السياسة على نطاق اوسع بعد ان عمق الانفصال والتجزئة ، حيث كرس وجود كيانين لليمن بالتواطؤ مع الحكم الملكي الاقطاعي وواصل على نفس الطريق في تكريس التجزئة الجغرافية والسياسية والاقتصادية للشطر الجنوبي من الاقليم وخلق بذلك أكثر من ٢١ سلطنة وامارة ومشيخة لكل منها حدودها الجغرافية ، ونظامها واقتصادها . وبذلك مكن من تثبيت القبلية والعشائرية وتغذيتها بالفتن والحروب التي كان يشغلها بها دونما تقدم اجتماعي او ثقافي .

وفي ظل هذه السياسة تمكن من السيطرة على كل سلطنة وامارة ومشيخة

كل على حـــدة . ان التركة الثقيلة التي تركها الاستعمار تؤكد الوجه البشع للاستعمار اينما وجد . فطوال ١٢٩ سنة ترك بلادنا ، وخاصة الريف ، دون ان يوجد فيها ابسط وسائل الحياة العصرية ، فطرق المواصلات تـكاد تكون معدومة ، وكذلك عدم وجود المدارس والوحدات الصحية وآبار مياه الشرب.

لقد كان الاستعمار يعتقد بأنه بابقاء شعبنا يعيش وكأنما هو في القرون الوسطى يستطيـع بذلك ان يبقى الى الابد .

هذه هي الوضعية الرهيبة من التخلف التي تركها الاستعمار والذي ضاعف من حدتها أن الاستعمار كرس كل القيم القديمة وكل الثقافات الخرافية والاتـكالية ليوجد حالة من الخضوع والذل لشعبنا .

ان الثورة اذ تدرك كل ذلك فانما لتؤكد المسؤولية الكبيرة والاعباء الضخمة التي تقع على عاتق قوى الثورة في تغيير العلاقات الاجتماعية والثقافية السابقة .

ان الثورة تؤمن بان التغييرات الاقتصادية العميقة التي تحدثها سيكون لهـــا تأثير كبير سيساعد الثورة مع هذا التحول الاقتصادي ان تعمل بأقصى سرعة ممكنة في لعب دورها على الصعيد الاجتماعي والثقافي لتصفية التركة الاجتماعيـة والثقافية السابقة .

ان هذه العملية لا يمكن ان تتم بطريقة سهلة او عفوية بل تحتاج الى نشاط دؤوب من قبل قوى الثورة ، وخاصة التنظيم السياسي والمنظمات الجماهيرية الـتي تنظم جماهير الشعب في صفوفها .

ان المناخ الديموقراطي الشعبي هو الوضع الملائم والصحيح لنضال قوى الثورة والمنظمات الجماهيرية من أجل المشاركة الفعلية عبر العمل التطوعي من أجل تغيير هذا الواقع ، وبدون هذا المناخ تصبح جماهير الثورة غير قادرة على ان تلعب دورها كاملا في تطوير البلاد والدفاع عن الثورة .

وفي مقدمة النشاط الاجتماعي يأتي العمل السريـع على تغيير وجه الحيـــاة الاجتماعية للريف ، حيث انه من الضروري ان تتوفر لريفنا اليمني وسائل الحياة العصرية من خلال تنظيم شبكة طرقات ومواصلات حديثة ، وتوفير احتياجات الصحة وكذلك ادخال الكهرباء الى القرى المختلفة ، وتوفير ديموقراطية التعليم وما يفرضه من التوسع في بناء المدارس الابتدائية والاعدادية والى جانب ذلك

فان محو الامية أولاً وتثقيف جماهير الثورة والمنظمات الجماهيرية بالثقافة الوطنية اليمنية التقدمية والافكار الاشتراكية العلمية ونشر هذه الافكار على اوسع نطاق سيمكن القوى الجماهيرية المرتبطة بالثورة من ان تعي دورها وتناضل وتقدم التضحيات المتنوعة في سبيل تجنيد طاقاتها لما يخدم الثورة الوطنية الديموقراطية .

ان المرحلة الراهنة تفرض الاهتمام الكافي من قبل الثورة بالنقابات والاتحاد العام لعمال اليمن واعادة تربيته وتثقيف كوادره النقابية بما يتلاءم والدور الذي يجب ان يلعبه العمال في هذه المرحلة والذي يختلف اختلافاً جذرياً عن دورهم اثناء الوجود الاستعماري من حيث علاقة العمال بالعمل وعلاقاتهم بالانتاج ، وعلاقاتهم ببقية قوى الثورة .

ان ترسيخ جذور الديموقراطية بين صفوفهم ووضع برامج مختلفة للنشاط الانتاجي والنشاط السياسي والاجتماعي العام،وضرورة ترابط نضالهم ووحدتهم مع الحركة العمالية في الشمال ، ان كل ذلك سيمكن الطبقة العاملة والحركة النقابية بان تلعب دورها التاريخي القيادي لا لتثبيت الاستقلال لوطني فحسب، بل للمساهمة الثورية الفعالة في معركة البناء الاجتماعي والوحدة اليمنية .

ان قيام اتحادات فلاحية ، واتحاد مركزي للفلاحين ، وتنظيمهم بطريقة صحيحة على أساس فروع الانتاج ، ووضع برامج لها سوف يمكن الثورة من أن تجند عشرات الآلاف من الفلاحين في مناطق الريف المختلفة لكي تقوم بدورها كاملا في النهوض بالأرض وبالتالي في التطور العام المستمر للريف .

كما ان قيام منظمة ديموقراطية للشباب في مختلف القطاعات في المدينة والريف وتعبئة طاقاتها وصقل مواهبها وربطها بالاطار العام لمسار الثورة ، وكذلك قيام مكاتب ثقافية مركزية الى جانب المنظمات والاندية الثقافية والرياضية والفنية، كل ذلك سوف يسهم اسهاماً كبيراً في اشاعة حياة سياسية واجتماعية جديدة في البلاد .

ان التغيير الجذري لطبيعة الحياة المتخلفة التي تعيشها المرأة اليمنية ومساواتها بالرجل والدفع بها لأن تأخذ مكانها الطبيعي في الحياة العامة والسياسية والاجتماعية الجديدة ، وكذلك مشاركتها في عملية الانتاج ودعم وتشجيع منظمة الاتحاد العام لنساء اليمن وحركة المرأة اليمنية في الاقليم وما تطرحه في نشاطاتها

الاجتماعية من برامج ومخططات تهدف الى تطوير المرأة والاسرة اليمنية ، ان ذلك سوف يضيف قوى جديدة عاملة الى صفوف الثورة تساهم بامكانيات كبيرة في خدمة الثورة وتطورها .

ان بناء المدارس والمعاهد والعمل على بناء جامعة يمنية لخلق الكوادر العلمية والتكنيكية والادارية والاقتصادية والسياسية والثقافية هو الطريق لخلق كوادر الثورة كي تثبت السيطرة الفعلية والواعية لقوى الثورة الوطنية الديموقراطية على اجهزة الدولة المختلفة . ان الاهتمام بتربية جيل الثورة تربية علمية اشتراكية سوف تمكن هذا الجيل من ان يضطلع بالاسهام في بناء المجتمع الجديد الذي تنشده ثورتنا الوطنية الديموقراطية .

ان اهتماماً كبيراً يجب ان يعطى لاجيال الثورة الجديدة ، هذه الاجيال التي سوف تتحمل في المستقبل على عاتقها اعباء التطور اللاحق للثورة الوطنية الديموقراطية .

ان الاهتمام بالاتحاد الوطني لطلبة اليمن ، باعتباره منظمة ديموقراطية للحركة الطلابية اليمنية ، التي تضم الاجيال اليمنية الجديدة للثورة في الداخل والخارج ، ووضع برامج من شأنها ان توحد الحركة الطلابية اليمنية في الاقليم وتجنيدها لخدمة الثورة وتثقيفها ثقافة يمنية تقدمية سوف يمكن هذه الأجيال من القيام بدورها كاملا لخدمة تطور الثورة والبلاد .

ان كل تقدم يتطلب جهوداً مخلصة وعملا دؤوبا في سبيل نهوض قوى الثورة بأوسع جماهيرها لتلعب دورها كاملا في عملية التغيير الاقتصادي وبالتالي الاجتماعي والثقافي .

ان هذا النشاط العام يرتكز على ما يلي :

اولاً : استئصال كافة الثقافات القديمة الاقطاعية والاستعمارية والبورجوازية ، وكل ما حاولت ان تخلفه من تقاليد ومفاهيم رجعية . ان هذه العملية لا يمكن ان تتم بصورة ناجحة الا باشاعة الثقافة الاشتراكية العلمية ، والثقافة الوطنية اليمنية والعربية التقدمية ، والاهتمام باحياء كل ما هو جيد في تراثنا الادبي والفني ، حتى تلعب دوراً ايجابياً في تطوير الثقافة الوطنية .

ثانياً : وضع منهج وطني يمني تقدمي في مجال التربية والتعليم يستند على أسس علمية وتربوية تقدمية يمكن الاجيال الجديدة ان تتخلص من كافة الثقافات

التربوية الاقطاعية والبورجوازية ، ويمكنها من أن تتسلـــح بعلم تربوي وثقافي مطور للتراث اليمني والعربي والانساني .

ثالثاً : محاربة كافة الافكار الاستعمارية والاقطاعية والرجعية الـــتي تسخر الدين في خدمة مصالحها .

رابعاً : تكريس الديموقراطية للقوى صاحبة المصلحة في الثورة لكل نشاط ومبادرة من اجل ان تقوم المؤسسات الجماهيرية بدور نشط وفعال في الحيـــاة الاجتماعية والثقافية خاصة في مجال تصفية المفاهيم العشائرية والقبلية والاقليمية وارساء المفاهيم الجديدة للثورة التي تنشأ عبر عملية التغيير لتحقيق مهام الثورة الوطنية الديموقراطية .

بيان حركة «الفكر الحر» بتونس *

١ ــ عندما تصبح الثورة غرضاً أدبياً كما في «الحصار» (ديوان شعر للهامي ، الدار التونسية للنشر جويلية ١٩٧٢) ، وعندما يستحيل الحديث عن الثورات وسيلة تعيش ،واستمناء فكريـــاً كما في «الزنج» (مسرحية لعز الدين المدني ، أخرجهـــا المنصف السويسي ، ومثلت في المسرح الدولي بالحمامات وبالمسرح الروماني بقرطاج جويلية ١٩٧٢) ، وعندما يصير الثوريون المزيفون أنصاف آلهة كما في انتاج البشير خريف ،ومصطفى الفارسي وغيرهم من «اليدباء» الاجيرة أقلامهم ، فان ذلـــك يعني أن عهد التفسخ الطبقي قد تمركز في ظل الزلفى والاستلاب بتونس ، وذلك يعني أيضاً أن عهد التأصل الطبقي قـــد شرع في الوجود ليقيم ذاته ، من خلال التجاوز ، بقوة التحقيق وعنف الوعي .

٢ ــ ان الحديث عن أدب الطليعة بتونس لا يرجع الى أبعد من سنة ١٩٦٨ : فهي السنة الـــتي حقق فيها التحرك الطالبي خطوة الى الأمام بتحويله مرارة

---

* وثيقة تلقتها « مواقف » من « المجموع الدائم لحركة الفكر الحر في تونس » ، وننشرهـــا بنصها الكامل .

الهزيمة الى تكتيك مستقبلي ، وبعدم مواصلة الطلبة الادباء التفريق (كسابقيهم) بين السياسة والادب ؛ وهي السنة التي شهدت أولى المحاولات في الانتاج الثقافي المساير لبعض الحركات الطلائعية في الغرب ؛ وهي أخيراً السنة التي فتح فيها رئيس تحرير مجلة «الفكر» (المجلة الوحيدة بتونس) أبواب مكتبه لادب الشبان ليمارس مهنة الوصاية عليهم بتوجيههم الاسبوعي الى «التونسة» وليعمل قلمه الاقطاعي في ما قد يبدو متجهاً الى المس بقداسة النظام الحاكم ، في الانتاج الذي يقدم اليه . وقد كان الرسم في ذلك الزمان (وما زال الى اليوم) ألا يتقاضى الاديب مقابلاً مادياً على ما ينشر .

الا أن تجذر الشباب المنتج سياسياً قد أحدث صداماً مع رئيس تحرير مجلة الفكر أثر تدخلاته المتكررة في الانتاج الفكري الذي كان يقدم اليه ، فنتج أن قاطع بعض الشبان مجلة الفكر .

وفي سنة ١٩٦٩ حوّلت جريدة «العمل» (لسان الحزب) مجلتها الثقافية الاسبوعية الى «ملحق ثقافي» أسبوعي ، لغاية استيعاب انتاج الشباب ولتوسيع نطاق السياسة الثقافية التي تمارسها الحكومة ، والقائمة على النقد البناء (أي الاعتراف بالنظام الحاكم كهيكل عام ، والعمل على ترميم بعض ما يبدو مهترئاً في كيانه) وعلى التعايش السلمي بين الاجيال في الخط الزمني ، وبين الطبقات الاجتماعية في الظرف الآني ، تعايشاً سلمياً في ظل الحكومة والحزب . ووقع عدد من الشبان في بادرة تكوين الملحق الثقافي السياسية ، فعمدوا الى النشر فيه كحل مؤقت لازمة في النشر بالبلاد مرجعها الى هيمنة الحكومة والحزب على كل أجهزة الابلاغ ، ولكن الوصاية التي رفضوها في «مجلة الفكر» عادت تعمل في انتاجهم بالحذف والاتلاف .

وفي سنة ١٩٧٠ أعطت الحكومة امتيازات لجرائد أسبوعية لم تتخطى منها الوعد الى الانجاز الا جريدتا «المسيرة» و«الايام» ، (تصدران كل يوم اثنين) ووجد بعض الشبان في جريدة «الايام» متنفساً للكبت الفكري الذي بدأوا يعانون ، فصاروا يصدرون فيها مجلة تعنى بشؤون الثقافة والفكر ، ولاحقت الرقابة انتاجهم الى أن توقفت هذه الجريدة عن الصدور بعد ستة أشهر من بروزها لاسباب لا مساس لها في الظاهر بالثقافة والفكر . ولم يتجه الشبان الى جريدة «المسيرة» لان اتجاهها لم يتخذ خطاً واضح المعالم بعد . ولم ينشر الشبان أيضاً لا في مجلة «قصص» التي تهيمن عليها بعض النزعات الجهوية ، ولا في جريدة

«الصباح» اليومية التي يترأس تحريرها انسان يعيش على ذكرى أدب الخمسينات ويرفض أي انتاج لا يواصل اتجاه حركة «مقهى تحت السور» .

وفي سنة ١٩٧٠ أيضاً تكوّن «اتحاد الكتاب التونسيين» . ولقد قامت هذه المؤسسة الحكومية الممارسة لسياسة النظام الثقافية بالبلاد ، على عدم اعتراف متبادل بينها وبين الأدباء الشبان ، اذ يشترط اتحاد الكتاب التونسيين في كل عضو ينتمي اليه أن يكون له كتاب مطبوع أو أن يكون قد نشر لمدة خمس سنوات في مجلة الفكر أو في الملحق الثقافي بجريدة العمل (أو في مجلة العمل قبل الملحق) ، وعبر الادباء الشبان من جهتهم عن عدم اعترافهم «باتحاد الكتاب» في عدد شهر أفريل ١٩٧٢ من مجلة «الآداب» البيروتية .

٣ — والآن صار الشبان يدركون — بعد التجربة — أن ما للنظام الحاكم لا يمكن أن يوجه ضد النظام الحاكم ، وأن الفكر الذي يحاربه النظام بالشراء والضغط ، هو من أنجع الأسلحة الفتاكة التي يمكن أن تحارب بها الأنظمة .

٤ — ان حركة « الفكر الحر » بتونس تعترف أنه لم يظهر من الانتاج الطلائعي في مجلة الفكر وفي الملحق الثقافي لجريدة العمل الا ما كان يسير منه في ركاب البورجوازية العالمية ، هذه التي تمارس — ممارسة المراهقين للعادة السرية — الاعجاب بالفن في مسيرة تخريبه تحت سياط الإستلاب الرأسمالي ؛ وبناء على ذلك تصرّح حركة الفكر الحر بتونس بعدم تبنيها ذلك الانتاج ، وبتجاوزها للطليعة ولكل المفاهيم الطلائعية .

٥ — ان حركة الفكر الحر بتونس لا تفرق بين السياسة والفن وتوجه نشاطها الى الإنتاج ، والى اذاعة انتاجها بين الناس بكل الوسائل الممكنة ، وتعمل في جبهتين لا ترى تناقضاً بينها :

أ — خلق الأوضاع الحياتية الكفيلة بإخراج الانسان من بوتقة الاستلاب الرأسمالي ومن خندق خرافات الاقطاع ،وبتجديده والتبشير بآفاق جديدة ينزع اليها الانسان الجديد .

ب — بث الوعي في صفوف الطبقات المستلبة والمسلوبة حتى تتمكن من الانعتاق ، ومن تغيير وجه الحياة في العالم بمسكها زمام أمرها بيدها ، لا تحت أوامر الأحزاب التي لا تزيح جلاد الجماهير الا لتتبوّأ مكانه .

٦ — ان حركة الفكر الحر بتونس ، اذ تندد بالمتواطئين مع النظام القائم ،

تعمل عملا دائباً وطويل المدى على محاصرة كل انتاج فني عميل وعلى فضحه ، وتناصب العداء كل الاتجاهات العقائدية التي بان بالكاشف انها لا تخدم الا مصالح الجلادين .

٧ – ان حركة الفكر الحر بتونس الرافضة لكل تصنيف ، والحرة من كل انضواء ، والكافرة بأصنام العرب والغرب الحالية والقديمة تقول بنقد الحياة اليومية ،وتعمل على فضح الإيديولوجيات الانحرافية أو الحالمة بمستقبل فاشستي .

٨ – ان حركة الفكر الحر بتونس تناهض كل ثقافة رسمية في كل بقاع العالم ، وتوجه نشاطها الى التنديد بكل ما من شأنه أن يمدد في أيام الحكومات القائمة على القمع ، والممارسة لاستلاب الجماهير ولقتل الانسان الحر بكل أنواع الأسلحة وفي كل بقاع الدنيا .

٩ – ان حركة الفكر الحر بتونس تساند مساندة مطلقة وفعالة كل ثقافة تعمل على خلق أوضاع حياتية تجدد الانسان بانتشاله من أدران رأس المال الشرقي والغربي والتيبيرموندي ، وعلى بث الوعي في صفوف الطبقات المستلبة والمسلوبة لغاية تمكينها من الانعتاق ومن مسك زمام أمرها بنفسها .

حركة الفكر الحر بتونس